المجتمع المصري و العلم المعاصر

استاذ المقرر

رشا محمد صلاح الدين

كلية التربية بالغردقة

اولى – علم نفس

العام الجامعي

2023/2022م

الكلية : التربية بالغردقة

الفرقة : الأولى

التخصص : علم النفس

تاريخ النشر : الفصل الدراسي الثاني

عدد الصفحات:200 صفحة

الفصل الاول : ماهي المشكلات الاجتماعية ؟

الحكم على الحدث بأنه يمثل مشكلة اجتماعية

محكات المشكلات الاجتماعية

الاطار المرجعي للمشكلات الاجتماعية

القاعدة الثقافية للمشكلات الاجتماعية

افكار خاطئة و مغالطات حول المشكلات الاجتماعية

روىء جديدة للمشكلات الاجتماعية

ابعاد المشكلة الاجتماعية

تصنيف المشكلات الاجتماعية

أسباب المشكلات الاجتماعية

الفصل الثاني: المداخل النظرية لدراسة المشكلات الاجتماعية

الفصل الثالث : المشكلات النفسية الاجتماعية

مشكلة الإساءة للأطفال

مشكلة العنف

مشكلة الفقر

مشكلة الانتحار

مشكلة الجنوح

مشكلة الادمان

مشكلة الاكتئاب

المراجع

مقدمة

يقابل علم الامراض (الباثولوجي) في الطب علم المشكلات الاجتماعية او علم العلل الاجتماعية في علم الاجتماع الذي يقوم بتشخيص الامراض الاجتماعية الناجمة عن التغيرات الاجتماعية التي تحصل دائماً وبشكل مستمر داخل المجتمع سواء كان ذلك بتأثيرات خارجية (حرب،كساد إقتصادي،حصار إقتصادي أو جوي أو تثاقف أو تطور تقني) أو بتأثيرات داخلية (ثورة،إنقلاب سياسي أو عسكري، تحولات سكانية سريعة ،ظهور موارد طبيعية جديدة) أو نقيض التغيرات الاجتماعية مثل التكلسات السياسية والتفرد النفوذي، العزلة الثقافية– تحجر النظام السياسي وبقائه على سدة الحكم– الانكفاء على الماضي سياسياً أو طائفياً مع تبديل وجوه النظام دون تطويره.

هذا التخصص الحقلي يحمل تسمية «علم » لانه يدرس العلل الاجتماعية بعيداً عن مؤثراتها المحلية والمحيطية بشكل متجرد مثل الاقلية الاجتماعية والاعراق (الارساس) والفساد الاداري والرشوة والعنف والوهن الاجتماعي (التفكك الاجتماعي) ويضم هذا العلم بين جنباته علم الاجرام وعلم النفس الاجتماعي ويرفد ويغذي علم الاجتماع الحضري والصناعي وعلم السكان بتحليل علمي للمشكلات

التي تظهر في حقول دراساتهم وذلك لان مواضيع الجنوح والانحراف والعنف والتحيز والتعصب العرقي والقومي والطائفي والوصم الاجتماعي وسواها تُعّد من أمهات المواضيع التي يتناولها هذا العلم العتيد والفني في ذات الوقت.

عتيد لان مواضيع اهتمامه من أقدم المواضيع التي تناولها علم الاجتماع لكنها لم تتبلر على شكل عِلم أو تُنسّق وتنظم على صورة حقل خاص بالعلل الاجتماعية، انما ظهرت دعوة في الوقت الحاضر لهذه المواضيع بتسميتها علم المشكلات الاجتماعية .

وأجد نفسي متساوقاً في الوقت الراهن بعدما عارضت هذه الدعوة في مؤلفي عن المشكلات الاجتماعية وذلك بسبب تفاقم المشكلات الاجتماعية كماً ونوعاً، الأمر الذي دفع علماء الاجتماع لأن يتناموا في دراساتهم لها كل حسب منطلقه. فضلاً عن اني أرى وجود علاقة جدلية متفاعلة بين التغير الاجتماعي والمشكلات الاجتماعية . ولما كان المجتمع الانساني لا يعرف السكون والركود التام (بل الموقت والمرحلي) فإن اي حالة تغير في جزء من اجزائه أو معيار من معاييره او قيمه من قيمه أو نمط من انماطه او نسق من انساقه فإن ذلك التغير يخلق مشكلات اجتماعية لبعض الناس الذين يتمسكون بما تم إلغاؤه أو تبديله بسبب تعلقهم به وخدمته لمصالحهم الذاتية .أو انه يمثل جزءاً من وجودهم الاجتماعي .لذا نجدهم يتدثرون به ويتمسكون به إنما لا يستمر هذا التدثر الماضوي لان تيارات الحياة متعددة ومستمرة وفي حالة تبدل دائم لكن اذا تسارعت التغيرات وتعددت مناحيها فإن عدد المشكلات وانواعها تتفاقم تباعاً ،علماً بان مساحات التبدل تختلف من حالة إلى أخرى. اذ كلما كانت مساحة التبدل الاجتماعي واسعة إتسعت مساحة المشكلة بين الناس والعكس صحيح. عندئذٍ تعمل هذه المشكلات المستجدة والمتنوعة والمتعددة الى دفع الناس لان يتغيروا مجبرين لا مخيرين واذا تصلبوا أو امتنعوا عن ذلك فانهم يتحولون الى ضحايا التغير، واذا قلت اعداد المشكلات فان ذلك يُعد مؤشراً على تباطؤ سرعة تغيره . واذا إنعدمت –مؤقتاً– فإن ذلك يعني انه

مستقر أو مسبّت –مرحلياً– لذا فإن الفصل بين التغير الاجتماعي والمشكلات الاجتماعية امرٌ غير وارد وغير واقعي لانهما متلازمان دوماً وهذه الحالة تشبه تقدم عمر الانسان. اذ كلما يتقدم عمره تزداد مشكلاته الذاتيه والاقتصادية والاجتماعية والفكرية .إنما في بداية مراحل تطور ونمو المجتمع يكون التغير مسبباً للمشكلات، وكلما تقدم المجتمع في نموه وتطوره وتفاقمت مشكلاته بات هذا التقدم عاملاً اضافياً الى عوامل التغير الاجتماعي. اي أنه كان في البداية نتيجة التغير ثم يتحول – فيما بعد– الى سبب ونتيجة في نفس الوقت.

ثمة حقيقة اود التصدي لها في هذه المقدمة وهي ان ليس كل مخالفة معيار او قيمة او نمط عيش يعد إنحرافاً وبالتالي يتحول الى مشكلة اجتماعية بل احياناً تكون هذه المخالفة تمثل إبداعاً وجرأةً خلاّقة لان المعيار الذي تم مخالفته او القيمه التي لم تحترم من قبل الناس او بعضهم يعني انها باتت لا تخدم مصالحهم او لا تعكس روح العصر اولا تتناسب مع طموحات الناس فالذي يخالفها او لا يلتزم بها لا يُعد منحرفاً أو موصوماً اجتماعياً بل متحرراً من بعض قيود الماضي ومتحدّاً مع تطورات الحياة الاجتماعية.

هذا واني قسمت هذا المؤلف الى خمسة فصول (وحدات) الاول عن مضمون المشكلة الاجتماعية ومحكاتها ومن الذي يحكم عليها بانها مشكلة او غير ذلك وفي الفصل الثاني اوضحت المنطلقات النظرية في رؤيتها المتنوعة للمشكلات(العلة والوهن والصراع والانحراف والوصم البنائي– الوظيفي والتفاعل الرمزي) وقد جاء الفصل الثالث بموضوع اسباب المشكلات الاجتماعية الذي تناول ثمانية اسباب كالحرب والتغير والوهن والهجرة وسواها. بينما تناول الفصل الرابع موضوع الوهن التنظيمي (التفكك الاجتماعي) في حياة الفرد والاسره والمجتمع المحلي والعام .في حين تناول الفصل الخامس موضوع انواع المشكلات الاجتماعية مثل الانحراف السلوكي والعنف والسلوك العدواني والفقر والادمان

١ -أ-إلماعة عاجلة

يُشبه الفيلسوف الفريد وايتهد العلم بالنهر الجاري الممتلك منبعين :الاول يمثل المصدر التطبيقي -العملي الذي يعكس الرغبة في توجيه أفعالنا لانجاز غايات مصممه سلفاً، والثاني يمثل المصدر النظري الذي يعكس الرغبة في الفهم والاستيعاب ،كلاهما يتمم الآخر ولا توجد مفاضلة أحدهما على الثاني أو أن احدهما أكثر فائدةً من الآخر لانهما يمتلكان الجوانب السلبية والايجابية على السواء(١).

بناءً على هذه المقولة الفلسفية نستطيع القول بأن المشكلات الاجتماعية تمثل الوجه الواقعي- العملي للمعرفة الاجتماعية في النهر الاجتماعي (علم الاجتماع) (إن جاز التعبير) واستناداً على ذلك لا يمكن تسمية علم الاجتماع بالنهر المعرفي اذا لم يكن هناك المنبعان (الواقعي والنظري) ليرفدا جريان النهر.

ومن هذه الرؤية حاول روبرت مارتن ان ينظّر المشكلات الاجتماعية الواقعية ويصوغها صياغة نظرية لترفد النهر الاجتماعي من منبعين (الواقعي والنظري) ليجعل هذا النهر المعرفي دائم الجريان بمياهه الاقليمية (بحوث ميدانية -محلية) والمحيطية -الكونية (تأريخ الشعوب التي سادت ثم بادت ومقارنة الثقافات المجتمعية).

إذا اردنا تثمير هذا الموضوع ،نسأل سؤالاً بديهياً مفاده لماذا ندرس وندرّس المشكلات الاجتماعية؟ببساطة لانها تؤثر علينا جميعاً أو على بعضنا وتعيق تطور حياتنا ونمو مجتمعنا أو تربك طموحاتنا. لذا يتطلب منا دراستها ومعرفة اسباب حدوثها ومن المسؤول عن وقوعها ومن المنتفع منها ومن المتضرر بها؟ وكم تكلفنا مادياً ومعنوياً وماذا نستطيع ان نعمل تجاهها؟

لكن تحقيق هذا الطلب ليس بالامر الهين او الميسر بل يحتاج فرقاً من الباحثين وقراءة العديد من الكتب والبحوث والمجلات الدورية فضلاً عن ذلك فإن المشكلات الاجتماعية تتصف بالصفات الاتية:

١- انها تظهر في كافة المجتمعات الانسانية سواء كانت كبيرة الحجم او صغيرة، معقدة البناء ام بسيطة ،متخلفة ام متحضرة،تقاليدية ام متمدنة.

٢-تختلف في سعة حدودها وتكرار وقوعها ودرجة توزيعها وكثافة الاضطراب الفكري والعاطفي المصاحب لها.

٣-تتشكّل تدريجياً على مراحل مترابطة لذا فإنها لا تظهر فجأة أو عفويةً.

٤- وبناءً على ذلك انها متطورة اجتماعياً.

٥- تظهر في منشأ يعكس الاضطراب الاجتماعي والشخصي. اي تبرز نتيجة تمزق النسيج العلائقي الاجتماعي او نتاج سلسلة تمزقات تحصل داخل المجتمع.

٦-وهذا يعني انها ملتصقة بالفساد والتفسخ الاجتماعي داخل المجتمع.

٧- يقال احياناً ان الاضطراب الفردي يبرز من نفس القوى الحيوية (الدينامية) التي تفرز أو تنتج الاضطراب الاجتماعي.

٨- تُفسّر على انها احد اوجه التغير الاجتماعي .

٩-يساعد التطور التقني على خلقها داخل المجتمع.

١٠- تعكس صرامة الضغوط الاجتماعية في بعض الاحيان كالفقر والاتكالية والضغوط السكانية (زيادة الولادات والوفيات) والصراعات العرقية والبطالة وارتفاع معدل الجرائم والانحرافات السلوكية والحرب والسلام والدعاية والتربية.

١١-تظهر بسبب التغيرات الحاصلة في اسلوب العيش ومستواه .أو انواع الممارسات الاجتماعية للاسرة والتعليم والدين والاقتصاد والسياسة والعلاقات الدولية وسواها من المتغيرات المؤثرة .

١٢-لا يمكن شرحها وتشخيص حدوثها من خلال سبب واحد بل عدة اسباب مترابطة.

١٣-مرتبطة بالقيم الاجتماعية في اغلب الاحيان.

١٤-غالباً ما يكون الاطار المرجعي لها واسعاً لا ضيقاً بعيداً عن التحيز وسوء تفسير ما تم العثور عليه.

١٥- الاداب العامة والاخلاق الاجتماعية يمثلان نواتها [٢].

نأتي الآن الى طرح مفهوم المشكلة الاجتماعية ونبدؤها من تعابير الافراد بوصف حدث معين، وذلك عندما ما يقال عن تصرف معين بانه مقرف او مؤلم او مزعج او شنيع أو بغيض او مروع. لماذا لم نعمل شيئاً لمعالجته او ملافاته ، عندئذ يمكن القول بان هذا التصرف يمثل مشكلة اجتماعية واقعية.

وازاء هذا الوصف يقول «بول هرتون» (عالم اجتماع امريكي معاصر) ان المشكلة الاجتماعية نتاج ظروف مؤثرة على عدد كبير من الافراد تجعلهم يعدّون الناتج عن الظروف المؤثرة عليهم غير مرغوب فيه ويصعب علاجه بشكل فردي إنما يتيسر علاجه من خلال الفعل الاجتماعي الجمعي.

يفضي هذا التحديد إلى أربع افكار هي:

١-ظروف مؤثرة على عدد كبير من الافراد.

٢-إدراك الافراد لما ينتج عن هذه الظروف المؤثرة عليهم بانه غير مرغوب فيه.

٣-الشعور بضرورة التحرك نحو هذا الانتاج.

٤- هذا المنتج المرفوض لا يتم معالجته او تجنبه إلا من خلال التصرف الجمعي.[٣]

ومن اجل التبصير دلف هورتون الى توضيح اكثر لهذه الافكار الأربع وهي كما يلي:

١- الظروف المؤثرة على العديد من الافراد. حيث اذا واجه الفرد حدثاً غير مُرضٍ بالنسبة له واغضبه او ازعجه فلا يُعد ذلك ظرفاً اجتماعياً مؤثراً .لكن اذا واجه عدد كبير من الافراد موقفاً مزعجاً او مقرفاً لهم فإن ذلك يُعد ظرفاً مؤثراً. أقول إن

الظرف المؤثر لا يُعد معبراً عن فعله الا اذا أثر على عدد كبير من الافراد وخلاف ذلك لا يعتبر مؤثراً اجتماعياً.

لا جناح من طرح سؤال مفاده كم يتطلب عدد الافراد لكي يكون العدد كبيراً ؟ يمكن تحديد العدد من خلال حديث الناس حول الظروف المؤثرة ومناقشته في جلساتهم وابداء تذمرهم منه لفترة طويلة من الزمن او بشكل متكرر ،ساعتئذ يمكن تسمية ما يتحدث الناس به بشكل متكرر ولفترة طويلة من الزمن ويعتبرونه موضوعاً مزعجاً او مقرفاً او مقلقاً عندئذ يمكن تسمية الموضوع المزعج بمشكلة اجتماعية واقعية يعيشها الناس فعلاً .

٢- إعتبار الحدث غير مرغوب فيه :تشير هذه الفكرة الى نوع القيم الاجتماعية السائدة في المجتمع .فإذا نظرت اليه بعين ايجابية فان المجتمع لا يعده ممثلاً لمشكلة اجتماعية لهم. لكن اذا عدته (قيم المجتمع) مخالفاً لها ومتعارضاً معها فإن افراد المجتمع يعدونه ممثلاً للمشكلة الاجتماعية. **هاك مثالاً على ذلك** :اشتغال الصبية في ورش العمل او في سوق العمل. اذا كانت الاسر قديماً تعمل في ورشه العائلة (الاب والام والابناء) والمجتمع كان يحث افراد الاسرة بالعمل معاً دون ادخال عمال من خارج العائلة بهدف المحافظة على تقاليد الاسرة المهنية والحرفية. أي ان القيم الاجتماعية تحث وتدعم اشتغال الصبيه في ورش عوائلهم . لذا لا يعد المجتمع انذاك (اشتغال الصبيه) مشكلةً اجتماعية .لكن اذا كانت قيم المجتمع ترى اشتغال الصبية في سوق العمل خرقاً للقيم الاجتماعية وتحثهم على الدراسة والثقافة فإن اشتغال الصبية في سوق العمل يعد في نظر الناس غير مرغوب فيه عندئذ يُعَد مشكلة اجتماعية.

مثال ثان: يحرّم المجتمع الاسلامي شرب الخمرة لان القرآن الكريم حرمها،لكن اذا شاع شرب الخمر بين افراد المجتمع الاسلامي عندئذٍ يعد شرب الخمرة مشكلة اجتماعية.

٣– اذا شاع الحدث بين قطاعات كبيره من الناس وبدءوا يتحدثون فيه ويقيمونه ويحددون احكامهم عليه ويقدمون مقترحات لمعالجته عندئذٍ يمكن القول بان هذا الحدث يشكل مشكلة اجتماعية.

مواقف الافراد من المشكلات الاجتماعية:

عند ما يدرك الافراد وجود مشكلة اجتماعية نجدهم يتخذون مواقف متباينه ومتنوعه تجاهها كل حسب بُعده الاجتماعي وقربه منها. اي لا يوجد موقف موحد لكافة قطاعات المجتمع وهي ما يلي:

١–عدم الاكتراث (اللامبالاة) وذلك بسبب ضغوط العمل وانشغال الفرد بوسائل ترفيهيه معينة التي تبعده عن مناقشة المشكلات الدائرة في مجتمعه وبخاصة المشكلات التي تعكس المصلحة العامة،فيبدي عدم اهتمامه بها ولا يعير اهمية لها، بيد انه يناقشها اذا مست مصلحته الذاتية – الشخصية او اضرت بها،عندئذٍ يتخذ موقفاً من المشكلة ويبدي اكتراثه فيها ويناقش جوانبها مع الاخرين.

٢–الاستسلام القدري: يتشكل هذا الموقف عند الذين يؤمنون بالحظ والنصيب وبالقدر المكتوب ممثلاً الموقف الخنوعي الذي يقبل بسوء الحظ او البليه أو خيبة الامل. هذا الموقف لا يدفع او يشجع الفرد في البحث عن حل للمشكلة التي يواجهها او يبادر في معالجتها لان معتقداته القدرية تغذي تفكيره فتقنعه بان ما حصل له هو مقدر له ومكتوب عليه فيستسلم لها بقناعة ورضى ولا يسمح لذهنه ان يفكر لمعرفة اسبابها او كيفية معالجتها بل يندب حظه او بخته على ما اصابه (اي اذا واجه مشكلة يتقبلها باستسلام معتقدي فلا يعترض ولا يعارض مؤمناً بالقول ما يصيبك الا نصيبك).

٣– الشك الساخر – المتهكم. أصحاب هذا الموقف يؤمنون بالفضيلة وبهيمنة المصالح الذاتيه على السلوك البشري المندفعة بدوافع نذلة او خسيسه او حقيره او بدافع انساني. واذا حصلت مشكلات اجتماعية فإنها تعّبر عن مصالح الناس الذاتية

فلا يهتمون (اصحاب هذا الموقف) لما يحصل داخل المجتمع من مشكلات لان مصالحهم مشبعة ودائرة تفكيرهم ضيقة فلا يبذلون جهداً للارتقاء بمستوى تفكيره او توسيع دائرته (انه يعكس المذهب الكلبي الذي يشك في طبيعة الدوافع البشرية) انه موقف متشكك باسلوب ساخر.

٤ – الجزاء الديني (عقوبة الآخرة) يعرض هذا الموقف اتجاهاً مفاده : ان المشكلة الاجتماعية التي حصلت داخل المجتمع ماهي سوى عقوبة الله على خطيئة الانسان او على كفره او الحاده او اشراكه بالله اوعدم ايمانه بالله . فالفيضانات والحروب او الكساد الاقتصادي او البطالة (يعدها اصحاب هذا الموقف) عقوبة الله على الذين كفروا بنعمتهم او اشراكهم بالله أو الحادهم .هذا الموقف يستحيل تعديله او تبديله من خلال المصلح الاجتماعي او بواسطة اصحاب القرار في المؤسسة الرسمية . لان اصحاب هذا الموقف يعالجونه باقامة الصلوات والدعاء والتضرع لله لذا لا يعالج هذا الموقف بالبحث العلمي بل بالفلسفة الدينية .فالمريض او الفقير جداً او العاطل عن العمل يُنظر اليه من قبل اصحاب هذا الموقف على ان ما اصابه راجع الى لعنة الله على اعماله الخسيسه فأصابه ما اصابه من فقر او مرض او طرد من العمل.

٥ – الافراط العاطفي: يعكس هذا لموقف افراداً يعيشون في بؤرة المشكل الاجتماعي ويتفاعلون معه ويتحمسون لمعالجته او حله ويكون شغلهم الشاغل الحديث عن المشكل والمبالغة بوصفه وتهويل صورته والاسراع بمعالجته ويتركز حديثهم عن معاناة الفرد اكثر من معاناة المؤسسة الاجتماعية أو المجتمع بكامله، ،لذا نجدهم يندمجون في لب المشكل ومتغيراته ويهولون آثاره وابعاده ويخلقون من الافراد الذين يعيشون فيه رموزاً نبيله وذات شأن رفيع المستوى.

٦–الموقف الاجتماعي العلمي: انه موقف علماء الاجتماع المتخصص بالعمل والرعاية الاجتماعية كخبراء محترفين لانه يركز على تحديد المشكل، اسبابه وابعاده ،وابراز الحقائق المرتبطة به والاحكام القيمة المتعلقة عليه وما ينضوي

تحت غطائها ؟ اي عدم التعاطف المفرط بل التحليل والتدقيق وهذا اصعب المواقف واكثرها جهداً وعناءً[٤].

الصفة العصرية للمشكلة الاجتماعية : من اجل دراسة المشكلة الاجتماعية بمنهجية متكاملة وبعيداً عن التفاسير الغيبية او الذاتية علينا الا نكتفي بالجانب الاخلاقي والادبي بل بالعمق التاريخي لها وبالذات بالجانب الانساني الذي يتمثل بالعقلانية الدنيوية –العلمانية .بعيداً عن التفاسير الدينية القديمة الخاصة بالخير والشر اذا أردنا تفهم واستيعاب المشكلات المعاصره علينا دراستها وتحليلها واستخلاص الجانب العقلاني الواقعي– الدنيوي مركزين على الجانب الانساني الذي تحتويه وذلك لان المشاكل الاجتماعية تختلف من فترة زمنية الى اخرى بسبب خضوعها لخصوصية الفترة الزمنية وظروف المجتمع فمثلاً مشاكل عصر التنوير في المجتمع الاوروبي غير مشاكل اوروبا في الوقت الراهن وظروف الفقر والجريمة في عصر التنوير غير ظروفها الآن لكن العنصر الانساني في هذه المشكلات جميعها يكون واحداً على الرغم من اختلاف الحقب الزمنية .لذا علينا ان نركز على الجانب الانساني الذي تتضمنه كافة المشكلات الاجتماعية بغض النظر عن زمان وقوعها وحدوثها وانتشارها وتغير معناها ومفهومها من ثقافة اجتماعية الى اخرى ومن عصر الى آخر لانه يتأثر ويتحدد بالشعور الاخلاقي والوعي الاخلاقي وبمستوى العيش وانماط السلطة الاجتماعية.

(١-ب) الحكم على الحدث بأنه يمثل مشكلة اجتماعية

ينصب اهتمامي في هذا الباب على استكشاف من الذي يقرر او يحدد او يحكم على حدث اجتماعي متناقض او متعارض مع القيم السائدة او مع الاداب العامة بانه يشكّل او يمثل مشكلة اجتماعية ؟ هل الفرد ام جماعة اجتماعية معينة ام مواقع بنائية متميزة او أصحاب القرارات الفوقية ام معايير فئوية متسيدة ام المجتمع برمته؟ هناك من يرى ان حكم اغلبية الناس على الحدث المتناقض مع بعض من قيم او معايير المجتمع يمثل مشكلة اجتماعية وبالذات على الحدث الذي يعمل على تغير مجرى او مسار الاحداث المعتادة والتي الفها الناس.

ويرى القسم الأخر من الناس حكم شريحة بارزة داخل المجتمع على الحدث المتناقض مع ماهو سائد في المجتمع يمثل مشكلة اجتماعية .وهناك من يرى حكم اصحاب القرار ومالكي النفوذ والسلطة السياسية والاجتماعية (عليّة القوم أو السراة) على الحدث الذي يخرج عما هو مألوف ومتعارف عليه أو الخروج عن المعايير الاجتماعية يمثل مشكلة اجتماعية.

اي لا يوجد إتفاق بين افراد المجتمع عن من الذي يقرر وجود مشكلة ام لا داخل المجتمع. الا انه من الخطأ القول بان القرار الفردي هو الذي يحدد ماهو مشكلة وماهو غير ذلك . أقول لا يوجد قرار فردي مستقل يحدد المشكل الاجتماعي.

لا مندوحة من القول بأن«معايير الجماعة الاجتماعية » سواء أكانت هذه الجماعة متميزة أم مغمورة ،متسيدة او مخنوعة ،حاكمة أم محكومة ،أقليه أو أغلبية ،هي التي تقرر بأن الحدث الاجتماعي الذي يتعارض او يتخالف او يتناقض معها على إنه يمثل مشكلة اجتماعية لها وليس لكافة معايير المجتمع او لكافة معايير الجماعات الاجتماعية التي تعيش ضمن مجتمعها .هاك مثالاً على ذلك : لا ترى معايير الجماعة الاجتماعية التي تصنع المشروبات الكحولية بأنها تخترق معايير المجتمع لانها منتفعه مالياً ومحلله دينياً ،بيد أن معايير الجماعة الاجتماعية التي تحرم شرب الكحول (كالمجتمع الاسلامي) ترى صناعة هذا المشروب تشكل لها مشكلة اجتماعية وبالذات لمعاييرها الدينية. مثال آخر : الجماعات التي ترى الاجهاض

يمثل خرقاً لمعاييرها الدينية تعده يمثل مشكلة اجتماعية لمعاييرها الدينية ،بينما لا يُعد كذلك عند الذين لديهم مشكلات صحية أثناء الحمل وعند اصحاب الدخول المالية المتدنية ،بغض النظر اذا كان الاجهاض يمثل خرقاً قانونياً ام لا .

لذا فان الحدث الاجتماعي قد يشّكل مشكلة اجتماعية لجماعة معينة لكنه لا يشكّل ذلك لجماعة ثانية داخل نفس المجتمع.

لا مناص إذن من القول بأن معايير الجماعة الاجتماعية هي التي تحدد وتقرر ماهو مشكل لها وبخاصة التي تتعارض اهدافها مع موازينها ومقاييسها.

بيد أن كلارنيس مارش كيس (عالم اجتماع امريكي حديث) يرى تحديد الحدث الاجتماعي على انه يمثل مشكلة اجتماعية يتم من قبل التفكير الاجتماعي وهذا المتغير هو الذي جعل مشكلات المجتمع الامريكي غير مشكلات المجتمع الصيني او الالماني على سبيل المثال .ثم دلفَ «كيس» الى وضع أربع مجاميع للمشكلات الاجتماعية هي:

١– تلك التي تظهر من خلال الاوجه غير المرغوب فيها للمحيط الفيزيقي.

٢– تلك التي تظهر من خلال خلل في تركيبة السكان نفسه او ميل غيرمرغوب فيه في معدل النمو السكاني او في توزيع السكان الجغرافي او في توزيع الجماعات العرقية.

٣– تلك التي تظهر بسبب تمزق النسيج الاجتماعي مثل ضعف التنظيم الاجتماعي بين الافراد والجماعات.

٤– تلك التي تبرز بسبب صراع القيم الاجتماعية الملتصقة بالطبقات الاجتماعية او بالجماعات الفرعية ضمن المجتمع الواحد.[٥]

٥–لا أريد ان اترك هذا الباب ما لم اسبر غور موضوعها لكي اصل الى حقيقتها الجوهرية او كبدها الذي اجده يتمثل في موضوع الوعي بالمشكلة والشعور بها وهنا اود تبصير الطالب بالفرق الاساسي بين الوعي بالمشكل والشعور به.

(١-جـ) محّكات المشكلات الاجتماعية

ذكرت في الصفحات السالفة تعابير الناس واحكامهم على فعل من الافعال يصفونه بانه مزعج او بغيض او شنيع للدلالة على عدم ارتياحهم له ويسبب ازعاجاً واشكالية لهم. والآن أطرح بعض المحكات الاجتماعية التي تحدد معالم المشكلة الاجتماعية بعيداً عن كلام الناس واحكامهم الذاتية وهي الدين، والقانون،والصحافة،والاداب الفنية.

١-الدين : مثلاً يحدد المحرمات والمسموحات في السلوك والعلاقات الاجتماعية والجنسية .أي يوضح ماهو محلل ومحّرم .أي ان الدين يمثل المصفاة التي تصفّى فيها الافعال المسموح بها والممنوع منها وكل فرد يخترق الممنوعات تتسبب له مشكلة اجتماعية امام مجتمعه ودينه فضلاً عن دعم الدين للشعور الجمعي لانه هو (الدين) الذي يقرر ماهو خير وما هو شر، ماهو خلقي وغير خلقي ماهو رباني وماهو غير رباني، ماهو اخلاقي وغير اخلاقي ومايمثل الخطيئة وما يمثل الاحسان وما تقره السماء وما لا تقره.

لذلك اذا حاول الفرد القيام باعمال محرمة في الدين فانه يخلق له مشكلة اجتماعية لانه خالف تعاليم دينه وهذا يعني ان التعاليم الدينية تقدم للفرد التمييز بين ماهو مشكلة وخلافها.اي يتم تحديد المشكلة من خلال معايير وأقيسة دينية .فما يعد منحرفاً حسب المعايير الدينية يعني خروج الفرد عنها او اختراقها وحدوث مشكلة معيارية حددت من قبل المعايير الدينية واعتبارها خطيئة اوعمل ضد قدسية المعيار وان الله لا يرضى عليه ولا تقرها حكمة السماء وان عقابه نار جهنم والعذاب في الآخرة .

٢- القانون :غالباً ما يستمد القانون بعضاً من بنوده من الدين السائد في المجتمع اذ يعمل على منع وقوع الخروقات القانونية اكثر من كونه قانوناً عقابياً. أي يمنع الناس من الانحراف او الوقوع في انحرافات وجرائم يعاقب عليها القانون . اي انه يعزز النظام الاخلاقي والادبي في المجتمع.

٣- **الصحف** : تكشف الصحف اليومية والاسبوعية العديد من المشكلات الاجتماعية التي تحدث في المجتمع سواء كان ذلك على شكل رسوم كاريكتيرية أو عرض وتحليل احداث اجتماعية تكشف الفساد الاخلاقي او الفات نظر الناس الى حالة الفقراء والعاطلين عن العمل والذين يعيشون في مناطق موبوءة بالجريمة او الاحياء السكنية الفقيرة والبغاء والانحرافات السلوكية وجنوح الاحداث لابراز معاناة الناس وهمومهم وشجونهم والمطالبة بمعالجتها وايقاع العقوبات على المسبِّبين لها. انه محك اعلامي لا عقابي ،هدفه الفات نظر الناس نحو المشكلات الاجتماعية الدائرة في المجتمع.

٤- **الادب الفني**: الذي يتمثل في الرسوم والمسرحيات الدرامية والشعر والنثر المعبر عن الظلم وعدم العدالة الاجتماعية وفقدان المساواة بين فئات الناس. ففيّ القرن الثامن عشر مثلاً كان يعبر عن معاناة الطبقة الفقيرة التي افرزتها الثورة الصناعية مثل كتابات اميل زولا وجارلس دكنس والسيدة جاسكل وجارلس كناكزلي لاطلاع القراء على ما يقع من مشكلات اجتماعية عند الفقراء.ثم جاء فيما بعد هينرك ابسن وويلز وسموئيل تبلر وجورج برنارشو وجو جالوتي لجلب الانتباه حول المشكلات الاخلاقية والتقرحات الاجتماعية في اوروبا .

وهنا لعب الادب الاجتماعي والقصصي والمسرحيات الاجتماعية دوراً فاعلاً في هذا المجال (الفات نظر الناس حول التقرحات الاجتماعية المنتشرة في احشاء المجتمع لتوضيح معاناة الانسانية عند البغايا واسر المجرمين والفقراء والعاطلين عن العمل والمنحرفين والمدمنين على المسكرات والمختلين عقلياً والذين يعانون من التمييز العرقي وسواها من المشكلات، ليس هذا فحسب بل كشف الجوانب التعيسة من حياة البؤساء والمحرومين والأشقياء المقتلعين اجتماعياً. وحتى الغناء والموسيقى اتجها بهذا الاتجاه (التعبير عن البؤس والحرمان اكثر من التعبير عن الجانب العاطفي والرومانسي) .وهذا ما اتجه اليه البيتلز في بريطانيا لتوجيه احاسيس الناس للجانب الانساني المزري .هذا المحك لا يهدف التماثل مع النسق

الاخلاقي أو قوانين المجتمع مثل المحك الديني والقانوني بل لجلب انتباه الناس للمعاناة التي يعيشها ابناء المشكلات المتقرحة في الجسم الاجتماعي. اي انه جانب انساني اكثر من كونه عقابياً اوعلاجياً. انه محك ساهم ويساهم في توعية الناس لآلام وشقاء المحرومين والبؤساء والفقراء والمنحرفين .مثل هذا المحك نجده في بعض القصص والمسلسلات العربية التي تعُرض على شاشة التلفاز[٦].

(١ -د) الاطار المرجعي للمشكلات الاجتماعية

يمثل التغير الاجتماعي إطاراً مرجعياً لمعظم المشكلات التي تحدث داخل المجتمع لانه سنّة الحياة ،لا يتوقف أو ينقطع عن استمراره في التحولات والتطورات التي تحدث تدريجياً لدرجة لا يستطيع المرء ان يلاحظ ما يحصل فيه من تحولات ونقلات . وهناك تغير يحصل في بعض الاحيان بشكل مبرمج ومخطط له سلفاً إنما في اغلب الاحيان يقع -التغير- ويأخذ مساره واتجاهه دون تخطيط مسبق وعندما يتغير فعل الانسان فإنه يكون مختلفاً في شكله عما كان في المرحلة السابقة . وحتى اذا تعارض الفعل الفردي - لا شعورياً - مع أهداف التغير فإن الاخير لا يقف بل يستمر دون تقطع أو تلكؤ.

ثمة حقيقة تستدعي التركيز عليها وهي انه ليس كافة اقسام المجتمع تتغير بنفس السرعة والدرجة والنوع وبنفس الاتجاه .فالقسم المادي من الثقافة الاجتماعية يتغير أسرع من القسم المعنوي وهذا ما يسميه وليم اوكبرن بالتخلف الثقافي لأن التطور التقني يتطلب من الجانب المعنوي ان يقوم ببعض التحويرات والتكيفات لكي تتساوق مع التطور المادي هذا التفاوت يخلق مشكلات عديدة قبل ان تحدث التكيفات الاجتماعية ويشير أيضاً الى ان الاطار المرجعي لمعظم المشكلات الاجتماعية هو التغير الاجتماعي.

لا مندوحة من الاشارة الى ان الثقافة نسبية وليست مطلقة إذ لكل ثقافة سماتها الخاصة بها التي تكون لا معنى لها بذاتها او بوضعها المستقل إنما تتضمن معناها الكامل فقط في حيزها الثقافي . فالشيء الجيد لا تُعرف جودته الا في وضعه الثقافي. والشيء السيئ لا يعرف جوهره الا في حيزه الثقافي. أي الجيد يكون جيداً اذا كان منسجماً مع باقي أقسام الثقافة ويقوم بوظائفها بشكل منسجم والشيء السيىء يكون سيئاً عندما يصطدم مع كافة اقسام الثقافة .مثال على ذلك : تعدد الزوجات في المجتمع الاسلامي يكون مقبولاً دينياً واجتماعياً لكنه ليس هكذا في المجتمع الغربي وهذه هي النسبية الثقافية.

ادلف الآن الى مدار التغير الاجتماعي في المجتمع العربي : يواجه مجتمعنا العربي تحولات اقتصادية وسياسية الامر الذي يتطلب من الشرائح الاجتماعية أن تبدل مواقفها ومعاييرها تجاه هذه التحولات إلا أن بعض مكونات الشريحه الاجتماعية واجهت هذه التحولات باليأس وبعضها بالارتباك والحيرة والتمرد والآخر بالهروب من مواجهتها.

فالفئة المتيئسة شعرت ان معاييرها قد تصدعت واهتز وجودها فخافت على مستقبلها وشكّت في قدرتها على مسايرة ومتابعة التحولات فأصابها اليأس والقنوط والرؤية المتشائمة للامور والاحداث.

اما الفئة الثانية فقد أصابتها الحيرة والارتباك بسبب تفاجؤها من التحولات السريعة في القوى الاقتصادية والسياسية الامر الذي جعل مواقفها مهتزه فباتت مواقفهم غير واضحة ومترددة غير قادرة على اتخاذ القرار والموقف الواضح تجاهها. اي لا تعلم هل تُقدم على التراجع ام التبني لهذه التحولات المتسارعة فبقيت مستقرة وراكدة في مواضعها لا تعلم ماذا تصنع.

ثم الفئة الثالثة: المتمردة التي ترفض مسايرة التحولات ومواكبتها لعدم إيمانها بها او لأنها ضد مصالحها الذاتية أو تسبب خسارة مادية او معنوية او الاثنتين معاً فوقفت موقف السلبي والناقد لها.

أخيراً الفئة الهاربة من هذه التحولات. وهي التي ذهبت الى مجتمعات اخرى غير عربية(الهجرة الطوعية) لتعيش فيها بعيداً عمل حصل من تحولات في المجتمع وذلك لعدم قدرتها على مشاهدة ما طرأ على مجتمعها وما اصابها من آثار تحوّليه عليها وهي غير راغبة في ان تتحول مع ما تم تحوله آملةً ان تجد الامن والاستقرار فيها أو ماهو أفضل مما تحول في مجتمعها .هذه جملة مشكلات اجتماعية افرزها التغير الاجتماعي الذي طرأ على المجتمع العربي المعاصر. ثمة مشكلة اخرى اعدها إحدى افرازات التغيرات العربية وهي ان قدرة الفرد على طيّ

الماضي القريب وما يتضمن من ذكريات جميلة وحلوة تجعل منه غير قادر على رؤية الحاضر بعين صافية وواسعة كما هو بشكله الطبيعي . هذا النقص المقدري لا يجعله سعيداً في وضعه النفسي بل تعيساً ومتكدراً. لذا يتوجب عليه ان يترك التفكير فيما مضى ويوظف طاقته الفكرية في التأمل والتفكير في الحاضر وان يعيش معه ويتفاعل ايجابياً وليس سلبياً (اي لا ينسحب منه) لانه اذا تم ذلك فسوف يرجع تفكيره الى الماضي ويتفاعل معه ايجابياً (بدافع تفاعله السلبي مع الحاضر) ثم إن إعاقه قدرة الفرد في التعايش مع الحاضر قد يرجع الى عدة متغيرات وابرزها هي :

١-تسارع الاحداث المتطورة والتحولات الاقتصادية والثقافية بسرعة فائقة وخلال فترة زمنية قصيرة.

٢- تعلق الفرد بحلاوة الماضي.

٣- المجهوليه المتعلقة بالاحداث المتطورة والمستحدثة.

٤- خوف الفرد من هذه المجهولية والارتياب من الخوض فيها.

٥- كثرة المصدات والعقبات التي تتضمنها الحالات المستجدة.

٦- مقارنة وضعه في الماضي المعلوم والحاضر المضبب في نظره.

٧- التعاكس مع المصالح الذاتية.

جميع ذلك يجعل من هذا الفرد متشائماً ومتكدراً وهذه مشكلة اجتماعية نفسية خلفتها التحولات الاقتصادية والسياسية التي حدثت في المجتمع العربي، لكن المعاصر نجده لا يعيش هذه الحالة بل يتجاوزها بسهولة ويسر لانه لا يلزم نفسه بالتفكير في الماضي بل يصب تفكيره وتأمله في الاحداث القائمة والمرتقبة فنجده متوثباً ومتهيئاً للاحداث أو يخلق احداثاً تتناسب مع تطلعاته وتأملاته القريبة المدى وهذا يتم بسبب جرأته واقدامه على كل شيء جديد وعدم اغراق تفكيره فيما قام به في الماضي بشكل مستمر كما يفعل المتكدر والمتيئس.

لا أريد ان اترك هذا الطرح (التغير الاجتماعي والمشكلات الاجتماعية التي يفرزها او يفرّخها) ما لم اوضح بعضاً منها وهي:

١-ضحايا وقرابين

لما كان التغير الاجتماعي سنّة الحياة ،فان ذلك يعني أنه لا توجد مجتمعات لا تتغير اولاً تخضع له ،بل جميعها قابله للتطور والنمو إنما الاختلاف في درجة قابليتها للتغير والى العوامل المعيقة لها وللمتغيرات المساعدة على تغيرها.

لا عصابة دكناء على الافهام تحجب حقيقة كل تغير تقع يخسر المجتمع بعضاً من عناصره البشرية ،أستطيع تصنيفهم بشكل رئيس الى نوعين هما «القرابين» الذي يدعمون حركة التغير ويدعون اليه فيخسروا بعض الشيء مقابل توقعهم في الحصول على أشياء تعويضيه مراده . إنها (القرابين) قمة التضحية التامة والكاملة في سبيل هدف سام بالنسبة للفرد الذي يقدّم روحه قرباناً لقيمة اجتماعية يتمسك بها أو فكرة أوعقيدة أو طائفة دينية أو مذهب ديني ولا يقبل سواه أو بديلاً له فيذهب فداءً له او في سبيله (طواعية) مثال على ذلك الفدائي في سبيل الله او العقيدة او الوطن أو المنتحر في سبيل الحب (حب شريك الحياة اوالحبيب) فالقربان يعني قبول الانسان ان يفنى ولا يتخلى عن معتنق فكري او يتحلل من التزام قيمي او ينفصل نفسياً عن انسان متعلق به روحياً (الحبيب او الحبيبة) إنها ثمن عدم الانفصال أو ثمن الرفض للتنازل عن أو الخروج من اي أنه يفني جسده لكي يعّبر عن وجوده الاجتماعي ولا تحصل الا في اوقات الازمات السياسية أو الاجتماعية او الاقتصادية او النفسية .النوع الثاني هو « الضحايا» وهم الافراد المتمسكون بما هو قائم وسائد ومتعودون عليه ومتعّلقون به وليس من صالحهم النفعي ان يتحولوا الى حالة جديدة او التكيف لشيء جديد والتمسك به (إلا إذا إضطروا الى ذلك أو أجبروا عليه) لذلك يلجأون الى الدفاع عن مصالحهم الذاتية من خلال ماهو قائم وسائد لدرجة انهم قد يخسرون مواقعهم الاجتماعية او يفقدون ادوارهم او

احوالهم او اعتبارهم او انفسهم (جسدياً) في سبيل المحافظة على ما تعودوا عليه أو الفوه وهنا يذهبون ضحايا لعدم تقبلهم للتغير ومواكبتهم له هذه الخسارة البشرية (مشكلة اجتماعية) تحصل لأغلب حالات التغير الاجتماعي الذي يحصل فجأة او يقع لقطاع كبير من المجتمع عن طريق الثورات السياسية والانقلابات العسكرية والانتفاضات الشعبية والكساد الاقتصادي والحروب الاهلية.

انها ضريبة بشرية يدفعها المجتمع عندما يبدأ في عملية التغير الاجتماعي على الا ننسى هناك نماذج اخرى من الافراد ممن لا يكونون من ضحايا التغير أو من قرابينه لانهم لا يتماثلون مع تطورات مجتمعهم مهما بلغت بسبب انسحابهم منه او تمردهم عليه . أو من الذين لا يعيرون أهمية للتغير بسبب عدم تضرر مصالحهم الشخصية فلا يكونون من القرابين او الضحايا. زبدة القول يكون دعاة التغير والمؤيدون له من القرابين ومن الذين ضده (ضد التغير) من الضحايا.

٢- اموات على قيد الحياة واحياء في ذمة الخلود .

النوع الاول يستذكرون من خلال اعمالهم وأفعالهم الخلاقة او الرائدة او المبدعة او التي تقدم اضافة ايجابية (فكرية او نقدية او تقويميه) جديدة لما هو قائم من أفكار وأعمال وأقوال حتى بعد وفاتهم بسنين (امثال ابن خلدون والجاحظ وأبي حيان التوحيدي).

بذات الوقت يعني الافعال اوالافكار الشاذة اوالمتطرفة او ضد الطبيعة البشرية كالجرائم السلوكية الحادة او الشاذة او القيادة الاجتماعية التي تخدم ذاتها وموقعها وسلطتها وليس خدمة المجتمع وانمائه او ترفيهه .يستذكرون ايضاً كنموذج سيء على افعالهم واقوالهم كالمجرمين الخطرين وقادة المجتمع السفاحين والطغاة أمثال (أبي العباس السفاح وهتلر وموسيليني وفرانكو) هذا النموذج من الافراد يمثل مشكلات اجتماعية سادت ثم بادت.

اما **النوع الثاني** (الاحياء في ذمة الخلود) فإنه يشير الى الافراد الذين يحيون حياة الدواب أو قطيع من الغنم يأكلون او يشربون ليومهم لكن لا وجود لهم ولا فاعلية لهم في الحياة الاجتماعية لا يغيرّون أو يتغيرون بل يساقون سوقاً نحو الحياة لا طموح لهم ولا يقدمون افعالاً أو افكاراً جديدة لهم أو لغيرهم او خلاقة مبدعه لانماء حياتهم (اي يعيشون ليومهم) لا يفعلون ولا ينفعلون بالحياة الاجتماعية النابضة بالحيوية . انهم موتى اجتماعياً إنما إحياء جسدياً يتحركون مكانياً لا يعكسون روح العصر المتطوره يمثلون السبات الاجتماعي القاتل ، يكرهون التجديد ،يعشقون المسكون الخانق، يحلمون في الماضي السحيق ،ينامون في واقع يستدعي اليقظة والانتباه والتحرك والتوثب نحو مرحلة متجددة ومتبدلة. انهم افراز معضلة اجتماعية سببها تعسف النسق المحوري في البناء الاجتماعي (كأن يكون النسق القرابي لأسرة حاكمة او طاغية او عسكري او قبيلة متسيدة او حزب واحد حاكم او طائفه دينية متسلطة) فهي اكبر من مشكلة وحلها عسير لانها تتطلب ازالة النسق المحوري واستبداله او تغيره للصالح العام لا الخاص.

٣- اللّوبان الاجتماعي :

الذي يشير الى الحيوية الفكرية والفعلية (السلوكية) التي تدور في حلقه مفرغة او في محيط اجتماعي ضيق تبحث عن مخرج لها لكي تحيا حياةً جديدة تعّبر عن حيويتها ونشاطها المتدفق وقدراتها التي كُبحت أو طوّقت ثم أُسرت بحوائل مانعة (قيمياً اوعقائدياً) او التي قمعت قسراً بقوانين متعاكسة مع الطبيعة البشرية من أجل كسرها وقهرها واخناعها وترويضها لخدمة الجماعة المتسلطة والمتكبرة والمتجبرة.

هذه الحالة تعيش بين الموت والحياة لا تريد ان تموت ترفض الافناء ،تضحي بالكثير لتحقق ذاتها الحية وتعيش من جديد في مناخ متجدد ومحيط متطور. لذا تكون متقلبة بين الركود والوثوب ، بين الحركة والسكون ،بين الاستقرار المؤقت

والحركة المفاجئة بين القفز الى الاعلى والارتطام بالواقع الجامد. لذا فإنها تخسر الكثير لتنعش نبضات فعلها لتبقيه حياً على قيد الحياة .خير مثال على هذه الحالة وضع المجتمع العربي في الوقت الراهن.

٤- الرهاب الاجتماعي :

تظهر هذه المشكلة في المجتمعات غير الديمقراطية او ذات البناء المتصلب ذات الحزب الواحد الحاكم او الرجل الاوحد او الاسره الحاكمة او الطائفة الدينية الحاكمة التي يكون فيها الفرد من غير ابناء او المؤيدين للفئة الحاكمة ،مرصوداً في سلوكه وتفكيره وحديثه وعلاقاته مع الآخرين ،فإذا بدا منه أي شيء ضد هذه الفئة فإنه يعاقب أشد عقاب (هذا في احسن الاحوال) مع باقي افراد اسرته ،لذا يكون الفرد هنا مهزوماً داخلياً خائفاً ممن حوله يشك بهم على أنهم وكلاء للاجهزة الامنية الحكومية وعليه ان يبدي ولاءه لهذه الاجهزة وللنظام ورموزه ،وعلى مر الزمن يبدأ الفرد في هذه المجتمعات يعاني من خوف دائم في مواجهته للاخرين التي بدورها (هذه المعاناة) تتحول الى شعور قمعي داخلي يردع تفكيره الحر وموضوعيته الحقه وصراحته الطبيعية وتحت هذا الشعور الخانق يبدأ هذا الفرد العيش في حالة رهاب اجتماعي. فيفضل الانعزال التام عن المجتمع كما يشعر بالاكتئاب الشديد احياناً.

٥- المرآة المهشمة :

عندما يأخذ الفرد باراء واحكام ورؤى الاخرين المحيطين به من اصدقاء وزملاء ورموز مهمة في حياته الشخصية والعملية والفكرية ،فان ذلك يشكل عنده مرجعاً ذاتياً يتفاعل معه عند اتخاذ قرار او فعل سلوكي معين. لكن عندما يشعر الفرد ان الاخرين المحيطين به لا قيمة لهم عنده وان الناس الذين حوله لا يخرجون عن كونهم ذئاباً مفترسة تحاول ايذاءه وتجريحه. أو أن المادة (المال) هي التي تتحكم في اراء ورؤى واحكام الاخرين عندئذ نجده لا يأخذ بها ويحتقرها ويأسف

أو اذا كان الآخرون من الانتهازيين والوصوليين واصحاب مصالح مؤقتة معه. عندها يشعر بندم واسف لما هو عليه فلا يرجع الى احكامهم أو يأخذ بها ويعتمدها في رؤية ذاته النفسية والسلوكية والفكرية.

هذه الاشكالية الاجتماعية تتعارض مع ما جاء به جارلس هرتن كولي (عالم اجتماع امريكي قديم) صاحب نظرية الانسان في المرآة التي عنى بها ان الانسان يرى ذاته في احكام واراء الاخرين المحيطين به التي شبهها كالمرآة التي يشاهد الفرد صورته فيها.

وما اردت طرحه هنا هو ان المرآة لا تكون صافية دائماً إذ احياناً تكون مهشمة لا يستطيع الفرد ان يشاهد صورته فيها لعدم استكمالها لكل اجزاء صورة الفرد الواقف امامها لذلك لا يستطيع رؤية صورته الحقيقة عليها ولا ترتسم ملامحه عليها .إنها إحدى افرازات التغير الاجتماعي السريع .

٦- الصراع الخفي والطبيعي :

سببه تباين او تعارض معايير الجماعات المتعددة التي ينتمي اليها الانسان المعاصر لحاجته لها في اشباع حاجاته الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية والدينية التي بواسطتها يكتسب روح عصره المتمدن المتصف بالتنوع والتباين والتعارض في الاهداف والمعايير والقيم. وبحكم انتمائه الى هذه الجماعات (شركات ،نقابة ،شلل صداقية ،نادي رياضي ، نادي اجتماعي، حزب سياسي، مجتمع محلي، جماعة عمل، تجمع ثقافي، جماعة فنية) يكتسب معايير كل الجماعات التي لا تكون واحدة عندها بل متباينة حسب اختصاصها وعملها وشروطها ومستلزماتها ،تبلور عنده التزامات عديدة ومتنوعة ومتباينة تنعكس على سلوكه اليومي مسببة له تناقضاً في فعله المنظم . أي يكون غير متناسق في بعض الاحيان وليس في اغلبه . واذا استمر عدم التنسيق هذا فسوف يولّد صراعاً في فعله الاجتماعي الذي يصبح (الصراع) حالة طبيعية تفرزها روح الحياة

العصرية المتصفة بالتبدلات الاجتماعية السريعة .فالابتعاد عن الاسرة بسبب العمل اليومي يمسي حالة طبيعية بعد ما كانت شاذة .وممارسة سلوكية مهنية تتعارض مع المعايير الاسرية او الدينية او الثقافية تضحى حالة مألوفة بعد ما كانت غير مألوفة. وتقبّل السلوكية الغريبة يغدو امراً حضارياً بعدما كان مرفوضاً وعمل المرأة في أعمال لم تألفها سابقاً صار مقبولاً واشتغال الصبية في الورش الصناعية اثناء العطل الصيفية امسى ضرورياً بعد ما كان متعارضاً والانجاب بدون زواج أضحى وارداً على الرغم من تعارضه مع القيم الدينية ، والمعاشرة الجنسية المثلية باتت مستساغة بعدما كانت مرفوضة قيمياً ودينياً، وبيع بعض اعضاء جسد الانسان وهو على قيد الحياة اضحى رائجاً بعد ما كان ممنوعاً ومحرماً .واخيراً بات تعقيم الرجال جنسياً مقبولاً بعدما كان مستهجناً .جميع ذلك أعدّها مشكلات اجتماعية قريبة المدى منتشرة داخل المجتمع المعاصر.

٧- غريب في عالم راكد :

عندما يعيش الفرد في مجتمع محافظ تقاليدي لا يتقبل التغيرات الاجتماعية الا بوساطة اقحام قسري او من خلال صدمة ثقافية لا يشعر الفرد فيها بوجود تغيرات سلوكية وفكرية في الحياة اليومية بل يتفاعل مع مفردات الحياة اليومية الرتيبة بكسل وبحيوية ضعيفة جداً، وعندما يريد الفرد ان يعيش في حيوية متدفقة ويفكر بدقة وعمق ويرغب في تبديل رتابة حياته اليومية لكي ينمّي طاقاته الفكرية والسلوكية هذه الحالة في الواقع تفرّخ مشكلة اجتماعية لدى الفرد اسمها الاغتراب الذاتي مفادها انه يشعر بانه غريب عن العالم الذي يعيش فيه.

٨- غريب في عالم متغير :

عندما يعيش الفرد في عالم تتوغل اليه التطورات السريعة في مفردات الحياة اليومية من انتقال الافراد والجماعات من مكان الى آخر وتحدث تغيرات جديدة آتية من المحيط الخارجي ولا يريد ان يتغير او غير قادر على مواكبة التطورات

والتغيرات الحاصلة في الظواهر الاجتماعية وحدوث مشكلات اجتماعية متعددة ومتنوعة ،فان هذه الحالة تفرّخ مشكلة اجتماعية للفرد مفادها ادراكه بالغربة عن عالمه المتبدل الذي يعيش فيه وغير قادر على مواكبة ومسايرة اوالتكيف لهذه التغيرات السريعة.

لا جناح من هذا الطرح الغريب عما هو مألوف في دراسة المشكلات الاجتماعية اذ ان التغيرات الاجتماعية تفرز وتفرّخ مشكلات جديدة ليس لها مثيل عما تفرزه التغيرات الاجتماعية التي تحصل بين فترة واخرى. اقصد ان كل فترة زمنية يحصل فيها تغير اجتماعي تطرأ مشكلات جديدة تختلف عن التي ظهرت في مرحلة زمنية سابقة وهذا لا يعني بأنني انكر حصول المشكلات الصادرة عن مخالفة المعايير والقيم الاجتماعية او التي تصدر عن خرق القوانين الرسمية والوضعية كالجرائم والانحراف السلوكي انما اردت ان اسلط الضياء على ما هو مفرز عندنا في المجتمع العربي من مشكلات اجتماعية ذات طابع نفسي انما منشؤها اجتماعي سببها التغير الاقتصادي والركود السياسي المتعارضان والمتعاكسان في الاتجاه والقوة لاني ارى ان المشكلات الاجتماعية لا تصدر فقط عن التغير الاقتصادي والسياسي بل من ركود احدهما مثل الكساد الاقتصادي أو السكون السياسي الثابت هذه الحالة المتعارضة مع سنّة الحياة الاجتماعية افرزت المشكلات الاجتماعية – النفسية الثماني التي اشرت اليها انفاً .

وتتحول المشكلات الاجتماعية الى معضلات اجتماعية اذا حصل ركود في الانشطة السياسية والاقتصادية عندئذ تتعسّر معالجة المشكلات الاجتماعية الناجمة عن هذا الركود المزدوج.

مثل : ١– بطالة المتعلمين: اذ يوجد في الوطن العربي ملايين من العاطلين عن العمل من خريجي المعاهد والكليات والجامعات وحتى من حملة الشهادات العليا (ماجستير ودكتوراه) .هذه المشكلة احدثها الركود الاقتصادي.

٢-تدجين الكتّاب : هذه المشكلة افرزها تكلس النظام السياسي في الوطن العربي الذي بات محتكراً على مجموعة صغيرة متسلطة بشكل مستديم على كراسي الحكم والسلطة لغاية موتها .فألزمت العديد من المفكرين والكتاب بان يجيروا معلوماتهم وافكارهم ويسخروها لصالح الفئة الحاكمة ورموزها واعتبار هذا الصالح هو الصالح الوطني والقومي. هذه مشكلة ثقافية اجتماعية تعمل على تقنين الثقافة وعدم التنوع الفكري الذي يشكل معين كل ثقافة اجتماعية.

٣- خمرنة الجماهير الصغيرة: هذه المشكلة افرزها ايضاً تكلس النظام السياسي، التي توضح الهاء الاطفال والتلاميذ والطلبه والفلاحين والعمال والموظفين بمهرجانات واحتفالات جماهيرية صاخبة ومناسبات مفتعلة ومسيرات لا حصر ولاعد لها لاشغالهم بها والهائهم بنشاط غير مجدٍ وابعادهم عن بناء الشخصية المتنوعة الميول والسمات بذات الوقت لاستخدامهم واجهة اعلامية مضللة .انها حالة انتشائية تشبه السكران او المخمور الذي لا يحس بما يدور حوله من مشاكل. انها مشكلة اجتماعية موجودة في مجتمعنا العربي.

٤- الهجرة الجماعية الطوعية :مشكلة اجتماعية افرزها تكلّس وتعسف النظام السياسي بحيث ادى الى هجرة المثقفين والاطباء والمهندسين والتجار واصحاب الصنائع الماهرة الى خارج الوطن العربي (الغربي) ليعيشوا عيشة كريمة وآمنة يشعرون فيها – على الاقل- بانهم من البشر، لهم حقوق مثل ما عليهم واجبات . هذه المشكلة تمثل قرحة اجتماعية تأكل في احشاء الجسد العربي (ان جاز التعبير والتشبيه).

بات واضحاً الآن ان المشكلات الاجتماعية لا تظهر ولا تفرّخ فقط بمجرد معارضتها او اختراقها أو كسرها أو مخالفتها لمعايير وقيم المجتمع السائدة فيه بل من الحالات الاتية.

١- التغير الاجتماعي (ضحايا وقرابين).

٢-الكساد الاقتصادي (البطالة،الفقر، التسول، الاضطرابات ،التظاهرات،التفاوت،الطبقي).

٣-تكلس النظام السياسي(الهجرة الجماعية الطوعية ،مشكلة حقوق الانسان ،الرهاب الاجتماعي ،التهريب،الرشوة ،الفساد الاداري، الواسطة).

٤- تزمت النظام التربوي (هروب التلاميذ والطلبة من المدرسة او تركها كلياً).

٥- الكوارث الطبيعية (الزلازل، التصحر، الفيضانات،ثوران البراكين،الاعاصير).

هذا يعني انها قائمة وسائدة ومنتشرة في كل فترة زمنية يعيشها المجتمع انما تتسع في المجتمعات ذات الكساد الاقتصادي وتكلس النظام السياسي وتزمت النظام التربوي والكوارث الطبيعية ، وتزداد بشكل مطرد في المجتمع المتسم بالتغيرات التقنية الصناعية والاقتصادية والسياسية السريعة الحدوث .

هذا من جانب ومن جانب آخر فان ظهور المشكلات الاجتماعية يصاحبها امراض صحية متنوعة وعديدة مثل الامراض النفسية (الاكتئاب والقلق والتوتر والرهاب والجلطة القلبية والدماغية والقرحات بانواعها والانهيارات العصبية) بسبب عدم تقبل بعض الناس للتغيرات بسهولة او بتدّرج الامر الذي يعرقل او يمنع تكيفهم للتطورات الجديدة أو بسبب ركود مناشط الحياة اليومية فتسبب عندهم الرؤية التشاؤمية او اللغط او القرف أوعدم حيوية النشاط الذهني اواللجوء الى الرؤى الغيبية والماورائية لتخدير ذواتهم وهم على دراية وعلم بهذا الهروب المؤقت والمسكّن (اي تخدير روحي ذاتي).

١-هـ- القاعدة الثقافية للمشكلات الاجتماعية

تكشف المشكلات الاجتماعية (بغض النظر عن نوع المجتمع الذي تظهر فيه) عن إتجاهها المضاد لمعايير وقيم المجتمع، وسأذكر ابرز مكونات هذه القاعدة وهي:

١-التفسير الغيبي: الذي يعبر عن الجذور الشريرة (غير الطيبة) للسلوك المضاد لمعايير وقيم المجتمع اذ يقول الناس عن العمل الطيب بانه صادر من جذور طيبة وعند الفعل المضاد لمعايير وقيم المجتمع بانه صادر عن جذور شريرة ،اي الفعل الجرمي صادر عن اشرار المجتمع او جماعة شيطانية .

٢- الوظيفة الاجتماعية للقيمة الاجتماعية :مثال على ذلك يرى المجتمع الامريكي ان تناول الكحول على مائدة الطعام يحمل في طياته نتائج تعزز روابط الصداقة بين المتناولين لذا نجدهم يشربون الكوكتيل قبل تناول الطعام كمقبل ومفتح للشهية وكتعبير عن المودة والالفة بين الموجود حول مائدة الطعام. في حين لا يتضمن تناول الكحول في المجتمع الاسلامي هذه الوظيفة الاجتماعية بل يرفضها لان الخمرة محرمة دينياً.

٣- إفرازات التغير الاجتماعي: مثل التمدن والتحضر اللذين يجلبان قيماً ثقافية مختلفة تماماً عما تفرزه الحياة الراكدة .فالنمو السكاني داخل المدينة يجلب معدلاً عالياً من الانحراف والجريمة والاضطراب الاسري وتضارب أدوار ومواقع الافراد والتفرد المعاش كمنط مديني هذا ناهيك عن تعطيل بعض الوظائف الاجتماعية لبعض الانساق الاجتماعية (كالمؤسسات والتنظيمات والقيم الاجتماعية) فضلاً عن التمييز العرقي والعنصري الذي يتحكم في علاقات المجتمع المديني، اضافة الى سخط واستياء الناس داخل العمل من بعض المؤسسات اللاقانونية مثل الرشوة والفساد الاداري والواسطة وتبدل مفاهيم الشرف والعفة والعلاقة الزوجية داخل الاسرة ....جميع ذلك يمثل افرازات التغير الاجتماعي.

في الواقع هذه الافرازات يقرها الفلاسفة والمصلحون الاجتماعيون والمفكرون ويطالبون باستئصالها من رحم المجتمع لاصلاحه وتنقيته من تلوثاته الاجتماعية والثقافية امثال لينين وستالين وهتلر وماركس وماو وارسطو وافلاطون وسانت اوغسطين وروسو ومونتسكيو.

٤- الجانب الذاتي للمشكلة : لكل مشكلة جانب ذاتي بسبب ممارستها من قبل الافراد وبرغبة منهم . مثال على ذلك تدخين عقار المارجوانا (مخدّر) يُعد سلوكاً منحرفاً يساعد على تشجيع الاخرين من المدخنين للسكاير بالاستمرار على التدخين لانه لا يعد انحرافاً ولا يعد المدخنون للسكاير انفسهم ان تدخينهم يمثل حالة مرضية بل عادية وغير منحرفه لان هناك من هم أسوأ منهم واخطر منهم (وهم مدخنون المرجوانا) اي اذا كانت هناك رغبة ذاتية في ممارسة سلوك يعده الفرد سلوكاً عادياً وطبيعياً فان ذلك السلوك لا يعطي ركناً من اركان القاعدة الثقافية للمشكلة الاجتماعية لكن اذا كان هناك نفور ذاتي من ممارسة سلوك معين وتم اختراقه من قبل البعض فان ذلك يمثل او يشكل مشكلة اجتماعية.

٥-قيم الاغلبية : ليس المقصود بقيم الاغلبية حجماً اوعدداً بل قيم سادة او علّية او سراة القوم التي تطغي على بقية الفئات والاقليات الاجتماعية التي تعيش معها في نفس المجتمع. في هذه الخصوص يقول رايت ملز (عالم اجتماع امريكي حديث) «ان معايير البروتستانت الانجلو سكسونيا هي التي تتحكم بمعايير المجتمع الامريكي وتعدها هي السوية والصائبة والصحيحة وذات قيمة اعلى من معايير الايرلنديين والايطاليين والبولنديين والزنوج والصينيين والكاثوليك واليهود كأقليات في المجتمع الامريكي»[٧].

زبدة القول : تكون معايير الانجلو سكسونيين البيض هي التي تحدد ما هو سوي وغير سوي ،مرضي وغير مرضي ،اخلاقي وغير اخلاقي.اي معايير سراة القوم تكون بمثابة محكات او مساطر يقاس من خلالها معايير التجمعات الاجتماعية الاخرى التي تعيش معها. وهذا يعني ايضاً انه ليس دائماً يستخدم العامل الانساني في تفسير وتوضيح وتحديد المشكلة الاجتماعية بل هناك متغيرات تاريخية او حجم الاقلية والاغلبية.

(١-و) أفكار خاطئة ومغالطات حول المشكلات الاجتماعية

ليس جميع افراد المجتمع يمتلكون نفس الدراية والمعرفة عن المشكلة الاجتماعية السائدة في المجتمع، بل تتباين حسب قربهم وبعدهم منها، وعلى نوع العلاقة بينهم.مثال على ذلك: قبل جيل من الزمن لاحظ بيترم سروكن (عالم اجتماع من اصل روسي وعاش بعدئذٍ في الولايات المتحدة) ما يلي: كلما زاد البعد الاجتماعي بين ضحايا الكارثة والاخرين ،قلت دوافع (الاخرين) في إدراكهم ودرايتهم بالكارثة –كمشكلة– وقل تعاطفهم مع ضحاياها . مثال على ذلك :ذهب ملايين من البشر ضحايا المجاعة في الهند والصين بيد أن تعاطف الاميركان مع هؤلاء الضحايا كان اقل بكثير من تعاطفهم مع الكوارث التي حدثت ضمن حدود الولايات المتحدة الامريكية.

فضلاً عن ذلك فإن جميع المشاكل الاجتماعية يتم ادراكها بدرجة اقل اهمية عند البعداء اجتماعياً. اي يدرك الفرد مشكلة اجتماعية معينة ويتعرف عليها وعلى أبعادها اذا كان متلصقاً بها والعكس صحيح. اي اذا كان بعيداً عنها (جغرافياً واجتماعياً) فإن معرفته بها تكون قليلة ولا يعير لها اهمية (مثال شعبي البعيد عن العين بعيد عن القلب، الجوعان غير الشبعان ،الذي يده في الماء غير الذي يده في النار) هذا ناهيك عن أن اهتمام الناس بالمتاعب الذاتية للافراد يكون اكثر من اهتمامهم بالشؤون العامة للمجتمع. على الا ننسى ان ادراك الناس للمشكلات الاجتماعية يزداد اذا كانت (المشكلات) تمثل حالات مستعصية وذات صيت واسع ويركز عليها الناس اهتمامهم مثل الامراض السارية والمزمنة أو السلوك الجمعي مثل الاعتصام والتظاهرات والمسيرات والحصار الاقتصادي.

لا شك في ان معظم الناس لديهم معدل محدود من الدراية والمعرفة حول المشكلات الاجتماعية وغالباً لا تكون منتظمة واحياناً تمسي متناقضة ومرات تغدو غير صحيحة ،والذي يستمع الى المغالطات الواسعة المتعلقة بالمشكلات الاجتماعية يكتشف ان معظم معرفة الناس حولها سطحية غير متعمقة ،الامر الذي يتطلب عدم الوثوق بها.

سأطرح ما جاء به كل من بول هورتنغ وجيرالد ليسلي حول هذه المغالطات:

١- ماهو متفق عليه بين بعض الناس على انه يمثل مشكلاً لا يكون هكذا مع جميعهم .

اذ يتفق معظم الناس على أن الفقر والبطالة وازمة السكن تمثل مشكلات اجتماعية ،لكن البعض الاخر لايراها هكذا بل يجد لها مردوداً حسناً للانسان لانها تساعده على ادراك حالة البؤس الانساني فالاغنياء يرون ان الفقر ضروري للمجتمع لانه يجعل مالكي المال والثروة في اعلى السلم الاجتماعي ويرى البعض الاخر ان وجود العاطلين عن العمل ضروري للعاملين لكي يزيدوا من اندفاعهم للعمل وحرصهم عليه واخلاصهم فيه. وهناك من يرى المشكلة العرقية بين السود والبيض تمثل مشكلة اجتماعية بينما لايراها البعض الاخر هكذا لانها تضع الاعراق في المكانات التي تليق بها.

٢- المشكلات الاجتماعية ماهي سوى حالات طبيعية محتومة يتعذر اجتنابها .

في الواقع لا توجد هناك مشكلة محتومة ومتعذ ر اجتنابها انما هناك ظروف معينة تعمل على انتاج او طرح أو افراز ناتج لا محال لا يمكن اجتنابه او منع وقوعه. اي ان المشكلة ناتجه عن القانون الطبيعي ويمتلك الحتمية الاكيدة.

٣-المشكلات الاجتماعية ماهي سوى حالة غير سوية :

ينظر احياناً الى المشكلة الاجتماعية – من قبل بعض علماء الاجتماع– على انها كسر للنظام الاجتماعي او اختراق أو انحراف عن السلوك الاجتماعي السوي السائد بين الناس. هذا التحديد او الرؤية تنطبق على بعض المشكلات مثل الادمان على المخدرات او بعض الجرائم .لكن في الواقع ان المشكلة تظهر من السلوك السوي وليس عن اختراق القوانين أو الخطأ. مثال على ذلك : يكون تلوث البيئة داخل المدن ناتجاً عن الاختراعات التقنية واساءة تصرف الناس في رمي النفايات والكثافة السكانية داخل المدينة.

مثال آخر: يساهم السلوك السوي في طرح العديد من المشكلات الاجتماعية التي يقوم بها الناس من غير المهذبين والمنحرفين وغير الاسوياء. فالمنافسة بين الناس وطموحاتهم تجعل بعضهم ينحرف عن السلوك السوي اذ تظهر عندهم حالات القلق والخيبة والاحباط والفشل .

مثال ثالث: موسيقى وغناء الخنافس التي سادت المجتمع البريطاني والغربي في الستينات والسبعينات من هذا القرن كفن من فنون الثقافة الشعبية الا انه أفرز ضرباً من ضروب السلوك المنحرف اجتماعياً وقانونياً في تلك المجتمعات وهي استخدام عشاق هذا الفن للمخدرات كالمرجوانا اثناء سماعهم هذا اللون الموسيقي والغنائي.

٤- تتسبب المشكلة الاجتماعية من قبل الاشرار والسيئين من الناس.

هذه اوسع مغالطة على الاطلاق، اذ احياناً يحلل بعض الناس المشكلات الاجتماعية تحت مضمون الثنائية المتبادلة او المتقابلة مثل جيد وسيء او مقارنة الاشرار مع الاخيار. في الواقع تصدر معظم المشكلات عن الناس الاخيار وبالذات عند الذين يتمتعون بعقلية تجارية اكثر من الاشرار. مثال على ذلك : ينتقل بعض الناس من وسط المدينة الى ضواحيها ليعيشوا فيها ابتعاداً عن مناطق الفقراء والموبوءه بالجريمة ،ويعزز البعض الاخر هذا الانتقال بشراء منازل في حي خاص اواقلية اجتماعية – ثقافية معينة .هذا الفعل في الواقع يعزز التعصب العرقي– العنصري لانه يجبر عرقاً معيناً على العيش في منطقة مزدحمة بالسكان تعج بالاسر المفككة التي تساعد على تفريخ مشكلات اجرامية وجنحية وتزداد معدلاتها هناك وهذا بفعل الموسورين والاخيار من الناس اذ انهم افرزوا هذه المشكلات الاجتماعية من خلال تعزيزهم للظروف التي يعيشونها.

انه من السهل ان نقفز الى خلاصة سريعة لنقول بان المشكلة وجدت بسبب ان بعض الناس ناقصون أو معابون .اذ عندما نجد انساناً عاطلاً عن العمل وهو في

حالة سكر فإن ظرفنا يملي علينا أن نقول بأنه عاطل عن العمل لانه سكران او سكير وليس كونه سكيراً بسبب عطله عن العمل ولأن ظروفنا تهيئ لنا وضعاً او ظرفاً نتقبل شرحاً واحداً ونفشل في شرح الاسباب الاخرى او نهمل او نغفل الاسباب الحقيقية.

٥- تتسبب المشكلات من كثرة الحديث عنها .

ان الحديث عن وجود مشكلة اجتماعية بين الناس كالفقر والبطالة والجريمة أو هروب التلاميذ من المدرسة يعمل على إثارة مشاعرهم وهواجسهم وخيالهم ويوسع حجمها أو يبالغ في خطورتها بحيث تصور وكأنها معضلة مستعصية الحل تعيش في أحشاء المجتمع يفهمها السامع بان المسؤولين في المؤسسات الاصلاحية والعقابية غير قادرين على السيطرة عليها او معالجتها .اذ ان تضخيم المشكل بين العوام يعمل على إقلاقهم وعدم ارتياحهم فيمسي هذا التضخيم مشكلة اكبر من حجمها وآثارها تتعّسر على المصلحين معالجتها بيسر وسهولة .فالحديث عن حالة شغب جماهيري ويتم نقله على شاشة التلفزيون كجزء إعلامي يزيد من إثارة المشاهدين وتحريك وعيهم وزيادة حديثهم عنه ولغطهم حوله انما عدم عرضه يعني تأجيل أو إرجاء تأثيراته السلبية.

٦- أماني الناس:

اذ أن هناك قسماً من الناس لا يرغب في رؤية المشكلة محلولة اما لكون حلها يعود بتأثير سلبي عليهم. أو أن حلها يتعارض مع معاييرهم وقيمهم ،أو تبدو معالجتها مكلفة لهم، كأن يدفعوا ضرائب اضافية او باهظة تمسي ازالتها مؤثرة على نفوذهم وسلطتهم ،لذا فإن بقاءها قائمة –في نظرهؤلاء الناس– داخل المجتمع يعزز نفوذهم ويزيد من تأثيرهم الاجتماعي ويقلل من خسارتهم المادية.

٧- الاعتقاد بأن الزمن سيحل المشكل

هناك من الناس من يعتقد بانه مع تقادم الزمن وتواتر الاحداث وخضوع المجتمع لقانون التغير والتطور، فان المشاكل القائمة تكون في طريقها الى الزوال وهذه رؤية ساذجة وغير واقعية ان لم تكن وهمية.

٨- عندما تصبح المشكلة حقيقية تكون محلولة .

ان معرفة الحقيقة أمر مهم جداً لكن الاهم من ذلك هو معرفة كيف نستطيع تحقيقها بواسطة التعرف على ابعادها وعناصرها .وان الحقيقة يصبح لها معنى فقط، إذا فُسّرت استناداً الى قيم الانسان .وعندما يكون للناس قيم مختلفة فإن وجود الحقيقة لا يستطيع حل عدم اتفاقهم بل إن الحقيقة تساعد الفرد على تحديد قيمتها بدقة اكثر، بيد أن النهايات المشتركة تجعل من الافراد ان تكون وسائلهم مشتركة في حلها وعندما تكون أهدافهم مختلفة فإن اتفاقهم حول الوصول اليها يكون محالاً .

٩- يمكن معالجة المشكلات الاجتماعية بعيداً عن تغير المؤسسات الرسمية .

يعتقد البعض بانه يمكن معالجة المشكلة الاجتماعية دون دفع تكاليف معالجتها -مادياً أو معنوياً- وهذا اعتقاد بعيد عن الواقع لان معالجة اية مشكلة يتطلب تغيراً سريعاً وجاداً في المؤسسات وممارساتها الوظيفية . مثال على ذلك: معالجة الفقر يتطلب تغيراً سريعاً في فلسفة واهداف المؤسسات التربوية والاقتصادية والحكومية تصل في بعض الاحيان الى التغير الكامل .لان وجود المشكلات في المجتمع يعني حالة مؤلمة انما علاجها يخلق مشكلة اخرى تتطلب الحل ايضاً. لذا فانه من الخطأ وعدم الواقعية التوقع من قبل المرء بان المشكلات سوف تحل بسهولة ويسر، ولكون المؤسسات تتغير ببطء فانها لا تستطيع معالجة المشاكل بسرعة بل ببطء ايضاً وهذا يعني اننا لا نستطيع القضاء التام على الفقر والبطالة والجريمة انما يمكننا وضع برنامج متطور لتقليل حجمها وتأثيرها الاجتماعي،بذات الوقت لا يمكن القضاء او اقصاء الامراض العصبية والعقلية من المجتمع انما بامكاننا تطوير وسائل علاجها في المستشفيات المتخصصة بها او معالجتها في القريب العاجل لان معالجتها تأخذ وقتاً طويلاً وان معالجتها تقلل من آلام المصابين بها[٨].

(١ – ز) رؤى جديدة للمشكلات الاجتماعية

يرى كل من روبرت نسبت وروبرت مرتون منطلقات دقيقة وذكية تمثل صوراً جديدة تعكس مرايا لزوايا اجتماعية لم يشر اليها علماء الاجتماع من قبلهم وهي ما يلي:

١–يبلور البناء الاجتماعي والثقافة الاجتماعية(اللذان يعملان على تنسيق وتنظيم سلوك الافراد وفق معاييرها وقيمها) ميلاً خاصاً نحو السلوك المنحرف والاضطراب الاجتماعي كثمن للتنظيم الاجتماعي الذي تهدف اليه. بعبارة أوضح تتولد المشكلات الاجتماعية من جراء التنظيم الاجتماعي ليس بقصد منها او بهدف تحدده بل كافراز غير مخطط وغير هادف.

٢– في ضوء هذه الرؤية ،او انعكاساً لهذه المرآة الاجتماعية يرفض علماء الاجتماع التفسير القائل بوجود روح شريرة اوعمل شيطاني يبلور المشكلات الاجتماعية وذلك لقناعتهم بان لكل تغير او تطور اجتماعي يحصل داخل المجتمع تحصل افرازات سلبيه يدفع ثمنها بعض الافراد كسعر اجتماعي لهذا التطور والتغير. انها نتائج مدانة غير مرغوب فيها الا أنها مصاحبة للتحولات الجديدة .

٣– غالباً ما تبرز هذه المصاحبات والافرازات الاجتماعية غير السوية (المعلولة اجتماعياً) في حيز الوجود بشكل غير مباشر وتتسع بنفس درجة ظهور التغير التي تأخذ إتجاه التعارض مع الانماط المؤسسية للسلوك الاجتماعي السوي.

٤– وبناءً على ما تقدم فإن دراسة وتفهم الاضطرابات الاجتماعية يتطلب دراسة وتفهم التنظيمات الاجتماعية لانهما من الناحية النظرية متلازمان غيرمنفصلين.

٥–استمراراً لهذا الاستدلال فإنه يمكن القول بان كل بناء اجتماعي يتضمن مشكلات اجتماعية خاصة به تعكس نوعه وحجمه ودرجة تطوره.

٦– حالة متعلقة بالفقرات الخمس السالفة الذكر مفادها ان الافراد الذين لهم ادوار ومواقع بنائية وانتماء طبقي اذا تعرضوا لاهتزازات وزلل اجتماعي فإن

سلوكهم الاجتماعي يتعرض للانحرافات او المخاطر او التجريح او التعريض او النقد بسبب حساسية ادوارهم ومواقعهم البنائية.

٧- اذا تصرف شاغلو المواقع البنائية تصرفاً متناقضاً مع مستلزماتها وشروطها او قاموا بتصرف لا ينسجم او يتناسب معها فإن الآخرين من حولهم (في مواقع العمل او المجتمع المحلي) يوجهون سهام نقدهم لهم ويكثر اللغط الجارح حولهم المفعم بالنميمة والاغتياب على التناقض الحاصل بين تصرفهم الاجتماعي والموقعي.

٨- إن تكافل اقسام (انماط او انساق) البناء الاجتماعي يولّد مشكلات ناتجه عنه.

٩- مشكلات نسق معين تخلق مشكلات جديدة لنسق آخر مثل مشكلات النسق السياسي تولّد مشاكل للنسق الاقتصادي[٩].

تساوقاً مع طرح نسبت ومرتون في هذا الصدد، ارى العلاقات القرابية في المجتمعات المحافظة والتقاليدية والنامية والمتخلفة تولّد مشكلات اجتماعية تعكس درجة ارتباطها وتضامنها الاجتماعي داخل التنظيم العشائري او المجتمع المحلي مثل الواسطة في التعيينات واختصار الروتين في الاجراءات الرسمية .أقول ان التنظيم التقاليدي (العشيرة او القبيلة) بهدف تأكيده على ترابطه الداخلي نجده يمارس الواسطة في التنظيمات الرسمية .أي يعمل على الاخلال بالاجراءات الرسمية المبنية على الكفاءة والانجاز والاداء. اقول يخلق مشكلة لتنظيم اخر او لنسق اخر.

فضلاً عن ذلك فإن ممارسة القوانين الصارمة داخل المؤسسات الرسمية تولّد انحرافاً عند الذين لا يمتلكون المؤهلات الكاملة او المطلوبة الامر الذي يولّد سبلاً متحايلة للخروج من ضغوطها اوعدم الامتثال لها أو لاختراقها بسبب فقدانها الجوانب الانسانية او ما يفرضه المحيط الاجتماعي.

أبعاد المشكلة الاجتماعية

الأبعاد هي المراحل التاريخية التي مر بها مفهوم المشكلات الاجتماعية وتمثل رؤية علماء الاجتماع لها.

بدأ علم الاجتماع الأمريكي في دراسة المشكلات الاجتماعية مع بداية التصنيع السريع والتحضر في المجتمع الأمريكي. حيث ظهر مفهوم يجمع في إطاره مفهوم المشكلات الاجتماعية، أطلق عليه مصطلح العلة الاجتماعية Social Pathology ثم تبعه مفهوم الوهن التنظيمي "التفكك الاجتماعي" Social Disorganization ثم السلوك المنحرفDeviant behavior .

الباثولوجية الاجتماعية Social Pathology

العلة الاجتماعية تعني الخروج عما هو مألوف في الوضع السوي والسائد في التنظيم الاجتماعي. ودخل مصطلح العلة الاجتماعية إلى علم الاجتماع من منظور سوسيولوجي للدراونية الإحيائية "البيولوجية" . حيث شبهوا المجتمع بالعضو الجسمي من حيث تطوره وعلاقته بوظائف أجزاء الجسم الأخرى من حيث السواء .

ويتميز المجتمع السوي عن المنحرف بسمات تتمثل في:الحالة الطبيعية من الصحة والظروف المعتادة الطبيعية Normal للمجتمع وأفراده، وأي انحراف عن هذه الحالة يعتبر علة مرضية لأنها لا تمثل الحالة الطبيعية كما عدوها أو حالة شاذة أو غير سوية لأنها لا تعبر عن السواء الاجتماعي للمجتمع الإنساني.

نشأ هذا الاتجاه في جامعة شيكاغو عام ١٨٩٢–وحتى أربعينات القرن العشرين. واعتبروا هذا القسم (علم الاجتماع) مركز للبحوث الاجتماعية.

ينتمي أصحاب هذا الاتجاه إلى أصول اجتماعية متماثلة، فمعضهم من أبناء الطبقة الوسطى البروتستانية، ومن مجتمعات زراعية صغيرة، وبعضهم كانوا من أبناء وزراء، ومعظمهم يمثلون تنظيمات ومؤسسات الرعاية الاجتماعية.

قاموا بدراسة أوضاع المعيشة للفقراء المهاجرين من الدول الأوربية والأفريقية والأسيوية واستوطنوا في المدن الحضرية التي تنمو بصورة سريعة وتتميز بالحراك الاجتماعي العمودي، واهتموا بدراسة

المناطق المتخلفة Slums التي تعج بالعديد من الظواهر الفقر والجرائم والانحراف والطلاق والأسر المتصدعة والصراع العرقي وأطلقوا عليها مصطلح العلل الاجتماعية.

اهتم العالم مليز بدراسة أصول وقيم العلل الاجتماعية فوجدها غير ممثلة للحالات الحضرية، وإنما تمثل نمط الحياة الاجتماعية الريفية، وكشفت خصائص العينة أن معظمهم من الشباب المهاجرين وينحدرون من الطبقات الوسطى للمجتمع الأوربي الحضري، ولم يمثلوا الطائفة المسيحية البروتستانتية.

انصب اهتمامهم على دراسة الانحراف عن المعايير والقواعد التي يحددها المجتمع لأنماط السلوك المرغوبة، وكان الهدف من دراسة السلوك المنحرف لتحديد المشكلة الاجتماعية وإيجاد وسائل وحلول لمواجهة هذه المشكلات.

في أثناء هذه الفترة ظهرت المدرسة الإيكولوجية التي اهتمت بدراسة التفكك الاجتماعي، وترى أن التفكك الاجتماعي ينشأ عندما يتعرض المجتمع لتغير اجتماعي سريع وحاد فيؤدي إلى انهيار النظام القيمي في المجتمع..

لاحظ بارك وزملاءه في دراسته انتشار مظاهر من التفكك الاجتماعي كالفقر والجريمة في مناطق معينة في المدينة، وتزداد المظاهر في وسط المدينة وتقل في أطرافها.

- يرجع أصحاب مدرسة شيكاغو مصدر المشكلات الاجتماعية للفرد ذاته لأنه فشل في التمثل لمعاير وقيم مجتمعه، وانتقدوا الفرد لأنه غير قادر على التكيف مع الحياة الجديدة.
- يهدف أصحاب هذا الاتجاه إلى تعزيز النظام الاجتماعي والمحافظة عليه أكثر من دراستهم للمشكلات الاجتماعية، وكانوا غير مهتمين بالخصوصية الثقافية والإنسانية للمهاجرين، وطالبوا بإعادة تعليم المهاجرين لحل مشكلاتهم من خلال إيجاد وتنظيم برامج تعليمية وندوات لتعليم المهاجرين القيم والعادات المرتبطة بطبيعة الحياة الاجتماعية للمجتمع الجديد.

التفكك الاجتماعي Social Disorganization

لا يعبر تحول مفهوم الباثولوجيا إلى مفهوم التفكك الاجتماعي عن أي تغير جوهري في المشكلات الاجتماعية التي يتطلب تحليلها. وذلك لأن ما كان يعد شواهد على الباثولوجيا

أصبح مؤشر على التفكك الاجتماعي فالطلاق Divorce والهجر Desertion يعتبران مؤشرات على تفكك الأسرة.

يشير مفهوم التفكك الاجتماعي إلى ما يصيب النسق الاجتماعي من قصور أو خلل في أدائه لوظائفه الأساسية وهي تحقيق الاستمرارية والاستقرار.(قصور في أداء الأنساق الاجتماعية لوظائفها).

ويقسم ميرتون Merton المشكلات الاجتماعية إلى نمطين:

الأول: يطلق عليه التفكك الاجتماعي ويقصد به الوهن التنظيمي.

الثاني: يطلق عليه السلوك المنحرف

والتقسيم لا يعني أن كل نمط يركز على ظواهر متباينة، وإنما يتناولان جوانب مختلفة من نفس الظاهرة.

كما يحدد مصادر للتفكك الاجتماعي وهي:

- ✖ صراع المصالح والقيم: يرتبط بجماعتين كل واحدة منهما تسعى بالدرجة الأولى لتحقيق مصالحها.
- ✖ صراع المكانة والتزامات الدور: يرتبط بالتغير التطوري، ونظراً لتباين مكانة الأفراد داخل المجتمع الواحد، وتعدد الأدوار الاجتماعية للفرد داخل المجتمع الواحد ، يحدث له صراع بين الأدوار بسبب غموض الدور فينتج عن هذا الصراع فشل في أداء الدور وبالتالي يظهر التفكك الاجتماعي.
- ✖ القصور في عملية التنشئة الاجتماعية: التنشئة الاجتماعية هي عملية يكتسب منها الأفراد الاتجاهات والقيم التي تتوافق مع أدائهم لأدوارهم الاجتماعية، ويترتب على القصور في عملية التنشئة الاجتماعية تفكك اجتماعي ناتج عن عدم وضوح للتوقعات المتبادلة بين الأفراد في المجتمع، بسبب الصراع القيمي، والصراع بين السلوك الجديد والسلوك القديم للأدوار.
- ✖ قصور قنوات الاتصال الجماعي:يظهر التفكك الاجتماعي بسبب قصور أو خلل في أداء الأفراد لوظائفهم داخل التنظيم الاجتماعي حتى ولم يكن هناك صراع بين المصالح أو القيم.

ويفرق ميرتون بين مفهوم التفكك **Disorganization** وبين مفهوم اللاتنظيم **Unorganization** حيث يرى أن نسق العلاقات الاجتماعية في اللاتنظيم لم يتشكل بينما في حالة التفكك فالعلاقات الاجتماعية قائمة بالفعل والخلل يصيب تلك العلاقات الموجودة.

ويقصد ميرتون بالوهن التنظيمي فشل الأفراد في تحقيق التوقعات الاجتماعية للأدوار التي يحددها المجتمع لأفراده، فيحصل صراع بين ما يقوم به الفرد من سلوك يومي وبين توقعات المجتمع. وعادة ما يحدث الوهن التنظيمي بسبب التغير الاجتماعي المفاجئ فيحدث عدم توازن أو عدم انسجام بين أجزاء النظام الاجتماعي العام في المجتمع. أي عدم توازن في وظائف النظم الاجتماعية كأجزاء للنظام الاجتماعي العام.

وينتج عدم التوازن من فشل الأفراد في أدوارهم ، ويحدث الفشل من خلال ثلاثة طرق هي: الفشل معياري، الفشل الثقافي، الشعور بالإحباط.

وبالتالي نرجع المشكلة الاجتماعية المتضمنة في التفكك الاجتماعي إلى إخفاق النسق في أن يجعل التنظيم الاجتماعي للمراكز ملتحماً ومتماسكا مع الأدوار المتوقعة ،أي عدم قدرة النسق على القيام بمتطلباته الوظيفية بطريقة فعالة.

السلوك المنحرف **Deviant behavior**

- يشير مفهوم السلوك المنحرف إلى الخروج أو الانحراف عن المعايير الاجتماعية.
- يميز ميرتون بين نمطين من أنواع السلوك المنحرف يتباينان من حيث المسببات والنتائج المترتبة عليها وهما السلوك اللاتوافقي والسلوك المنحرف.

السلوك اللاتوافقي:

- الفرد غير المتوافق يتخذ في معارضته للمعايير صفة العلانية.
- يمثل سلوك الفرد غير المتوافق تحدي لشرعية المعايير الاجتماعية التي يعارضها ويرفضها.
- يسعى اهتمام الفرد غير المتوافق إلى تحقيق هدفه المتمثل بتغيير المعايير الاجتماعية القائمة.
- الأفراد غير المتوافقين لا يسعون لتحقيق مصالحهم الشخصية.
- يسعى الأفراد غير المتوافقين إلى تحقيق العدالة الاجتماعية.

السلوك المنحرف:

- الفرد المنحرف سلوكياً يخفي سلوكه المنحرف.
- ينتهك الفرد المنحرف المعايير التي يعترف بها.
- ينحصر اهتمام المنحرف في كيفية الهروب من العقوبات الخاصة بالمعايير الاجتماعية.
- الأفراد المنحرفين دائماً يسعون لكسب مصالحهم الشخصية.
- المنحرفين يسعون للتعبير عن مصالحهم الخاصة وإشباع احتياجاتهم الشخصية بأي صورة.

التداخل بين المشكلات الاجتماعية والانحراف والتفكك

- إذا فشل المجتمع في إشباع احتياجات الأفراد وتحديد الأدوار الاجتماعية بفعالية يشعر الأفراد بالإحباط نتيجة الإخفاق في تحقيق الأهداف وبالتالي تظهر الصراعات في الأدوار.
- إذا ازدادت الاحباطات وتفجرت الصراعات أفرزت التفككات الاجتماعية .
- إذا تفشى التفكك الاجتماعي وامتد بين قطاعات مجتمعية لها ثقلها شكل مشكلة اجتماعية.

إذا أثرت المشكلة الاجتماعية سلبا في الأفراد أو الجماعات أصبحت سلوك انحرافي وتطلب مواجهة وتدخل.

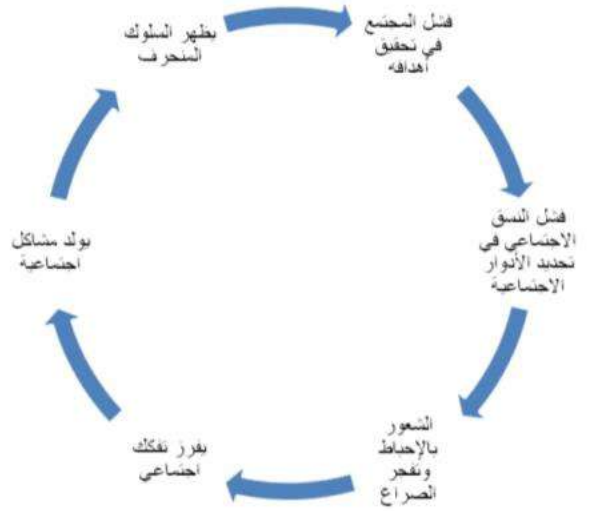

تصنيف المشكلات الاجتماعية:

صنف انكلز المشكلات الاجتماعية المتكررة التي تواجه أي مجتمع إلى ثلاث مجموعات أساسية، تتعلق كل منها بنمط مختلف من أنماط التكيف مع الحياة الاجتماعية، وتتمثل هذه التصنيفات في التالي:

١- المجموعة الأولى من المشكلات المتكررة التي تواجه المجتمع، هي المشكلات الناجمة عن التكيف مع البيئة الخارجية الطبيعية والإنسانية على السواء.

٢- المجموعة الثانية من المشكلات التي تتعلق بإشباع الاحتياجات الإنسانية الفردية لأعضاء المجتمع.

٣- المجموعة الثالثة من المشكلات التي يتحتم على كل مجتمع مواجهتها والعمل على حلها هي مشكلات الوحدات الأساسية للتنظيم الاجتماعي.

كما يصنف العادلي المشكلات الاجتماعية إلى ثلاث مجموعاتك

١- مشكلات أساسية : ترتبط بعدم كفاية الخدمات المتوفرة في المجتمع لإشباع حاجات الأفراد مثل: نقص المدارس، أو المستشفيات عن الحاجة الفعلية للمجتمع.

مشكلات تنظيمية: ترتبط بتركيز الخدمات على مناطق معينة دون أخرى،فتصبح المشكلة بسبب عدم العدالة في التوزيع للخدمات.

٢- مشكلات مرضية: مثل، السلوك الإجرامي، كالسرقة والقتل، والتسول والتشرد والأحداث والبغاء ..الخ.

٣- مشكلات مجتمعية: وترتبط بسوء العلاقات بين الجماعات المختلفة في المجتمع، وعدم اهتمام المواطنين بمشكلاتهم، وتركها للظروف

كما حدد مايس ثلاث مستويات من المشكلات الاجتماعية.:

- الدرجة الأولى: وهي مشاكل تؤثر بصورة قوية في الظروف الاجتماعية المحيطة بها، ولها نتائج متعددة ومؤثرة في المجتمع مثل: مشاكل الحرب، الفقر، التمييز العنصري
- الدرجة الثانية: وتتمثل في الظروف والنتائج الضارة التي تنتج بصفة أساسية عن المشاكل الاجتماعية المؤثرة، والتي يتولد عنها بدورها مشاكل إضافية أخرى. مثل: سوء التغذية الناتج عن الفقر.
- الدرجة الثالثة: وهي تلك الظروف الضارة والتي تعد بصورة مباشرة أو غير مباشرة نتاج للمشاكل الاجتماعية الأساسية من الدرجة الأولى. مثل: البطالة الناتجة بسبب التفرقة العنصرية.

خصائص المشكلات الاجتماعية:

- تمتاز المشكلة الاجتماعية بأنها مدركة أو محسوسة، وكلما زاد إدراك الناس للمشكلة كلما أدى إلى زيادة وضوح المشكلة.
- لا تتوقف المشكلة الاجتماعية عند حد الرفض الذهني، وإنما تشكل نوعاً من التحفيز لتحريك السلوك المضاد واتخاذ المواقف لمواجهتها وإزالة آثارها السلبية.
- تمتاز المشكلة اجتماعية بعدم الثبات على وتيرة واحدة من حيث قدرتها على التأثير، مثال: منظور جيل الآباء يختلف عن جيل الأبناء من حيث المعايير التي يراها الآباء بأنها مشكلة في حين أن الأبناء يراها عكس ذلك.
- تمتاز المشكلة الاجتماعية بخاصية النسبية، وترجع هذه الخاصية لاختلاف المجتمعات الإنسانية وأفرادها وجماعاتها في تحديد مفهوم المشكلة. على سبيل المثال: ظاهرة الثار في المجتمعات العربية تشكل بعد ثقافي أما في المجتمعات الغربية فتشكل جريمة اجتماعية.

- تخضع المشكلة الاجتماعية في حجمها وتنوعها وتأثيرها للظروف التي يخضع لها المجتمع، فكلما زاد حجم الكثافة السكانية في مجتمع ما زاد تعقيده بنائياً كلما أدى ذلك إلى زيادة في المشكلات الاجتماعية وتنوعاً في أسبابها ومصادرها وزيادة في أشكالها وأنواعها.
- تظهر المشكلة الاجتماعية في منشأ يعكس الاضطراب الاجتماعي والشخصي، وتكون نتيجة لتمزق نسيج العلاقات الاجتماعية، أو نتاج سلسلة تصدعات تحصل داخل المجتمع.
- تمتاز المشكلة الاجتماعية بالحتمية في وجودها فهي دائمة ومستمرة مع استمرارية الحياة الاجتماعية، ولذلك فهي تظهر في جميع المجتمعات الإنسانية سواء الكبيرة أو الصغيرة المتقدمة أو المتخلفة.
- تمتاز المشكلة الاجتماعية بأنها تظهر بسبب التغيرات الحاصلة في الحياة الاجتماعية، أو في المؤسسات الاجتماعية.

أسباب المشكلات الاجتماعية

كما أنه يصعب الوصول إلى تعريف واحد (جامع مانع) للمشكلة الاجتماعية ، وكما تلعب النسبية دورا بارزا في تحديد المشكلات ، فإنه يصعب أيضا وضع أيدينا على سبب واحد لها . فأسباب المشكلات ومسبباتها تتنوع وتتعدد من ناحية بل وتختلف من زمان إلى زمان ومن مكان لآخر ومن ظروف إلى ظروف ، بل ومن باحث إلى باحث آخر (طبقا لخلفيته وتكوينه) من ناحية أخرى . وعلى سبيل المثال فإنه إذا كان التغالي في المهور سببا في تأخير الزواج لدى الشباب السعودي فإن أزمة الإسكان تقف وراء نفس المشكلة في مصر . وإذا كان النفط ومن بعده الطفرة المادية والوفرة الاقتصادية تقف وراء الكثير من مشكلات دول الخليج العربية ومن ضمنها السعودية ، فإن الحروب ونقص الموارد الاقتصادية كانت هي الواقفة وراء الكثير من الأزمات والمشكلات الاجتماعية في بلدان مثل مصر ثم العراق ولبنان (حاليا) .

من ناحية أخرى فإنه في الوقت الذي قد يعزو الشخص العادي مشكلة ما إلى سبب أو عامل واحد ، يردها الباحث الاجتماعي المدقق إلى أسبابها وهي في الأغلب الأعم متعددة. وفي الوقت الذي يرى فيه عالم إجرام . مثلا . أن الوراثة تقف وراء هذه الظاهرة المشكلة (الإجرام) ، يرد عالم الاجتماع هذا إلى البيئة المحيطة بكل أبعادها ومؤثراتها وإن كان لا يستبعد تأثير الوراثة كأحد العوامل أو الاحتمالات على الأقل .

هذا ويرجع بعض الباحثين أسباب المشكلات الاجتماعية إلى عدم إشباع الاحتياجات بين أفراد المجتمع وهي الاحتياجات الاجتماعية والنفسية والاقتصادية والبيولوجية والصحية والتعليمية والترويحية ... ويرجعوا عدم الإشباع لمجموعة من العوامل المرتبطة بالفرد ذاته" عوامل ذاتية" أو أسرته" عوامل أسرية" أو للعوامل الاجتماعية أو البيئية أو العوامل المجتمعية.

ومن المسببات الرئيسية للمشكلات الاجتماعية التفاوت في سرعة التغير الاجتماعي والثقافي، الناتج عن سرعة التفاوت في أحد جوانب الثقافة عن الجانب الآخر.

وعلى أية حال فإنه على الرغم من تعدد مسببات المشكلات الاجتماعية فإنه يمكن وضع أيدينا على بعض الأمور مثل : الوضع الاجتماعي والثقافي (أساسا) . إلى جانب العوامل الذاتية

"الوراثية" والبيئية "البيئة الطبيعية" والبيئة الاجتماعية بما فيها من ظروف ثقافية واجتماعية واقتصادية وسياسية باعتبارها واقفة وراء هذه المشكلة أو تلك ومتحكمة في خط سيرها .

فالعوامل الوراثية " هي عوامل تتعلق بذات الفرد، وقد تلعب هذه العوامل دورا في حدوث المشكلات، وتمثل الانحرافات الناتجة عن أسباب بيولوجية أو عضوية أو وراثية مثل الانحرافات الجنسية والأمراض العقلية والعصبية . إلى جانب الميول الإجرامية . مشاكل اجتماعية، كما يدخل في الانحرافات الشخصية الميل إلى النفعية والسعي وراء المصالح الشخصية عموما، وسواء تأتى ذلك من قبل أفراد أو جماعات .

والعوامل البيئية الطبيعية تتمثل في المناخ والتضاريس والتغيرات البيئية التي تحدث فجأة بسبب البراكين أو الزلازل أو الفيضانات جميعها تسبب في حدوث المشكلات الاجتماعية، على سبيل المثال: المناخ الحار قد يورث حساسية الأعصاب وثورتها بسهولة .

كما أن هناك عوامل بيئية غير طبيعية تحدث من خلال الفعل الاجتماعي وتكون مصدر لتفريخ المشكلات الاجتماعية، على سبيل المثال أحياء سكنية توسم ببيئة المجرمين أو الفقراء، وفي الغالب تفرخ مزيدا من السلوكيات المنحرفة... وهكذا .

ويندرج تحت العوامل البيئية غير الطبيعية الظروف الاقتصادية، والسياسية، والأوضاع الاجتماعية والثقافية.

فالظروف الاقتصادية (المسببة للمشكلات) يمكن تمثلها في كثير من الأوجه والتي يأتي على رأسها أمران أولهما الفقر وثانيهما عدم العدالة في التوزيع.

والظروف السياسية المسببة للمشكلات يمكن أن تتركز أساسا في اتجاه نظام الحكم السائد في عدالته أو عدمها، وفي ديمقراطيته أو دكتاتوريته، كما يتمثل في مدى سيطرتها على مجريات الأمور في الدولة وتسييرها من عدمه ، هذا المناخ قد يعصف بكل جهود التنمية ويقف في طريق التطور والتقدم.

أما الأوضاع الاجتماعية / الثقافية التي تسهم في خلق المشكلات فيمكن تمثيلها في كثير من الاتجاهات ومنها :

١) اختلاف التنشئة الاجتماعية .

٢) اختلاف المستويات التعليمية .

٣) التضارب والتصارع الثقافي : وتؤدي إليه العديد من الأمور التي منها :

- اختلاف الموجهات والمعطيات الثقافية .
- الجمود والتزمت الثقافي أو الانفتاح الثقافي اللا محدود .
- التفاوت في سرعة التغير (أو التغيير) الاجتماعي والثقافي .

٤) الضبط الاجتماعي القاسي أو المتساهل .

٥) عدم وضوح الأهداف والمعايير .

٦) النزعات الانعزالية والانفصالية .

ويعتبر التغير الاجتماعي من أهم العوامل المسببة لحدوث المشكلات، وكلما زادت سرعة واستمرار عملية التغير الاجتماعي، زادت احتمالات ظهور المشكلات الاجتماعية داخل المجتمع. وقد يكون التغير إيجابياً بحيث يعمل على حل المشكلة الاجتماعية. أو سلبياً يؤدي إلى حدوث المشكلات الاجتماعية.

التغير الاجتماعي: **Social change**

يشير مفهوم التغير الاجتماعي إلى الاختلافات والتغيرات التي تحدث عبر الزمن لمجتمع ما، وتشمل هذه التغيرات العادات والقيم والقوانين والتنظيمات الخاصة بالنظام الاجتماعي الموجودة في المجتمع، كما قد يشمل التغير الاجتماعي التحول في التركيب السكاني للمجتمع أو بنائه الطبقي، أو في أنماط العلاقات الاجتماعية. بمعنى آخر يؤثر التغير الاجتماعي المفاجئ على البيئة الطبيعية و البيئة الاجتماعية.

ومن عوامل التغير الاجتماعي

- الأيديولوجية: حركة فكرية هادفة لها فاعلية إيجابية في البيئة الاجتماعية، وفي العلاقات الاجتماعية، والقيم الاجتماعية، والعمليات الاجتماعية. وتنبثق الإيديولوجية من الوضعيات والفئات اجتماعية.
- التجديد الثقافي: ويأخذ أشكال متعددة مثل الاكتشاف والاختراع
- الفعل الإنساني: أداء الأفراد والجماعات والهيئات المقصود في عملية التغير الاجتماعي.
- التكنولوجيا: السبب المباشر للتغيرات الاجتماعي والثقافية التي تحدث في المجتمع، وغالباً ما يترتب عليها حدوث التخلف الثقافي أو الهوة الثقافية، فينتج عنها عدم مسايرة

النظم الاجتماعية مع تطورات المجتمع الحديثة، مما يؤدي إلى عجز النظم الاجتماعية عن استيعاب التغيرات الجديدة نوعاً من الانعزال بين الأفراد والنظم الاجتماعية، فتحدث المشكلات الاجتماعية.

- الهجرة: سواء كانت هجرة داخلية أو خارجية تعمل على تحويل الأفراد من مكان لآخر وهم يحملون معهم قيمهم وعاداتهم وكذلك ظروفهم الصعبة التي قد تضطرهم إلى عدم التوافق فتنشأ المشكلات الاجتماعية بسبب عدم توفقهم مع المجتمع الجديد نتيجة لهجرتهم.
- الحروب: الحرب بحد ذاتها مشكلة اجتماعية، ويؤدي الحرب إلى مشكلات عديدة منها الهجرة والتفكك والفقر والبطالة والتعصب وغيرها من المشاكل الاجتماعي.
- الوهن التنظيمي أو التفكك الاجتماعي: يترجم مفهوم الوهن التنظيمي إلى التفكك الاجتماعي الذي يتضمن عدم فاعلية أو ضعف في أدوار ومراكز بنائية داخل التنظيم أو عدم أدائها لأدوارها كما هو مطلوب منها هيكلياً، وهذا بدوره يؤثر على وظيفة النسق أو أنساق البناء، أو يحدث توتر شخصي ناجم عن العيش ضمن نسق تنظيمي يصعب التحكم فيه بشكل تام. كما يشير أيضاً إلى معاناة الأفراد في تحقيق ذواتهم داخل التنظيم بسبب جمود بعض من قيمه. ومن الإفرازات التي يحدثها الوهن التنظيمي الفساد الإداري.
- التصنيع: يؤثر التصنيع في البيئة وكذلك الإنسان ويولد أنماط جديدة من العلاقات المبنية على العمل بحد ذاته، وهذا ينكر ثقافة المجتمعات المبنية على العلاقات الاجتماعية.

المشكلات الاجتماعية والتغير الاجتماعي:

تشير الدراسات التي أجريت على المجتمعات المحلية إلى حقيقتين أساسيتين:

الأولى: شهدت المجتمعات المحلية خلال السنوات الأخيرة من القرن العشرين تغيرات اجتماعية سريعة ومستمرة، وترتب على هذه التغيرات نتائج متعددة منها: حدوث تعديلات في كل من الخصائص السكانية لهذه المجتمعات، والنسق الإيكولوجي، والبناء الاقتصادي،والأنماط التنظيمية.

الثانية: عانت معظم المجتمعات المحلية الحديثة من الكثير من المشكلات الاجتماعية والاقتصادية والسكانية والإيكولوجية، ومنها: مشكلة الفساد الإداري، الفقر، الهجرة ...الخ.

وتنشأ المشكلات الاجتماعية عندما لا تتزامن التغيرات التي تطرأ على جزء من الثقافة اللامادية مع التغيرات التي تطرأ مع الثقافة المادية، نتيجة تفاوت معدلات التغير الثقافي في جانبي الثقافة.

■ ويشير مفهوم التخلف الثقافي **Cultural lag** إلى الموقف الذي يتغير فيه أحد عناصر أو مكونات الثقافة بشكل أسرع مما يتغير به غيرها من العناصر الأخرى للثقافة.

ملخص لما سبق عرضه:

أ –المشكلة الاجتماعية تعتبر انحرافا عن المستويات الاجتماعية . المتفق عليها علما بأن المستويات الاجتماعية ذاتها تختلف باختلاف الزمان واختلاف المكان

ب– المشكلة الاجتماعية هي التي يراها الناس كذلك . أي هي هذا النوع من السلوك أو الحدث الذي تجمع غالبية الناس (في مجتمع ما) على أنه مشكل .

ج – المشكلة الاجتماعية تتمايز من مكان إلى آخر ومن زمان إلى غيره ومن ظروف إلى ظروف ، بل أن النظرة إليها قد تختلف من قطاع اجتماعي (أو حتى مجتمعي) إلى آخر . وهذا يعني أن النسبية تلعب دورا كبيرا في تحديد ملامحها .

د – المشكلة الاجتماعية تعكس الصالح والمواقف والاهتمامات (الخاصة بطبيعة الحال) أي أن كل فرد وكل جماعة وكل مجتمع يعبر عن الشيء باعتباره مشكلا أو غير مشكل من وجهة نظر ذاتية **Subjective** بحتة.

هـ – المشكلات الاجتماعية متداخلة ومتشابكة ومن الصعوبة تحديدها بدقة بالفصل بينها فصلاً قاطعاً

و– المشكلات الاجتماعية مستمرة ولا يمكن إيجاد حلول جذرية لها، أو متفق عليها، فهي تظهر في كافة المجتمعات الإنسانية .

ز- تتشكل تدريجياً على مراحل مترابطة لذا فإنها لا تظهر فجأة أو عفوية وبناءً على ذلك فهي متطورة اجتماعيا .

ح- لا يمكن شرحها وتشخيص حدوثها من خلال سبب واحد بل عدة أسباب مترابطة

ط- مرتبطة بالقيم الاجتماعية في أغلب الأحيان . وتمثل الآداب العامة والأخلاق الاجتماعية نواتها.

ي- تظهر في منشأ يعكس الاضطراب الاجتماعي والشخصي وهذا يعني أنها ملتصقة بالفساد و التفسخ الاجتماعي داخل المجتمع .

ك- لا بد أن تتضمن نمطا من السلوك قابل للتدخل الإنساني.

القاعدة الثقافية للمشكلات الاجتماعية

تكشف المشكلات الاجتماعية (بغض النظر عن نوع المجتمع الذي تظهر فيه) عن اتجاهها المضاد لمعايير وقيم المجتمع ومن أبرز مكونات هذه القاعدة ما يلي:

- التفسير الغيبي: يرجع السلوك الصادر من الناس والمضاد للمجتمع وقيمه إلى الجذور الشريرة .
- الوظيفة الاجتماعية للقيمة الاجتماعية: مدى ما يقوم به الفرد من خلال قيمة الشيء. مثال: عندما يزو ضيف أسرة بدوية لابد من ذبح خروف له إكرام له. وفي الغرب لا نجد مثل هذا العمل.
- إفرازات التغير الاجتماعي: تجلب المعطيات العصرية قيماً ثقافية مختلفة تؤدي إلى حدوث مشكلات لم يعهدها المجتمع من قبل مثل: انتشار الرشوة والفساد الإداري والواسطة وتبدل مفاهيم الشرف والعلاقة الزوجية داخل الأسرة وانتشار ظاهرة العنف والمخدرات..الخ
- الجانب الذاتي للمشكلة: لكل مشكلة جانب ذاتي، ونفور الفرد من ممارسة سلوك معين وتم فعله من قبل البعض يعد مشكلة.
- قيم الأغلبية: المعايير الاجتماعية هي التي تحدد ما هو مقبول ومرفوض في المجتمع.

أفكار خاطئة عن المشكلات الاجتماعية

يختلف أفراد المجتمع في الدراية والمعرفة عن المشكلة الاجتماعية السائدة في المجتمع، ويرجع هذا الاختلاف إلى درجة القرب أو البعد من المشكلة وإلى نوع العلاقة بينهم. إن جميع المشاكل الاجتماعية يتم إدراكها بدرجة أقل أهمية عند البعيدين عنها اجتماعياً وجغرافياً. لأن المعرفة بها تكون قليلة وبالتالي تفقد الأهمية ، كما أن اهتمام الناس بالمتاعب الذاتية للأفراد يكون أكثر من اهتمامهم بالشؤون العامة للمجتمع، ويزداد إدراك الناس للمشكلات الاجتماعية إذا كانت "المشكلات" تمثل حالات مستعصية، أو ذات صيت واسع، أو تمس جانب من اهتمامات الناس.

معظم الناس لديهم معدل محدود من الدراية والمعرفة حول المشكلات الاجتماعية وغالباً لا تكون منتظمة وأحيانا تسمى متناقضة ومرات تغدو غير صحيحة ،والذي يستمع إلى المغالطات الواسعة المتعلقة بالمشكلات الاجتماعية يكتشف أن معظم معرفة الناس حولها سطحية غير متعمقة ،الأمر الذي يتطلب عدم الوثوق بها.

وتتمثل الانطباعات الخاطئة عن المشكلات الاجتماعية في التالي:

١- عدم الاتفاق بين الناس على ما يعتبر مشكلة اجتماعية:

يرجع عدم الاتفاق إلى الفروق في القناعات الشخصية للأفراد فما هو متفق عليه بين بعض الناس على انه يمثل مشكلاً لا يكون هكذا مع جميعهم .

إذا يتفق معظم الناس على أن الفقر والبطالة و أزمة السكن تمثل مشكلات اجتماعية، لكن البعض الآخر لا يراها هكذا بل يجد لها مردودا حسنا للإنسان لأنها تساعده على إدراك حالة البؤس الإنساني. فالأغنياء يرون أن الفقر ضروري للمجتمع لأنه يجعل مالكي المال و الثروة في أعلى السلم الاجتماعي .

ويرى البعض الأخر أن وجود العاطلين عن العمل ضروري للعاملين لكي يزيدوا من اندفاعهم للعمل وحرصهم عليه وإخلاصهم فيه.

وهناك من يرى المشكلة العرقية بين السود و البيض تمثل مشكلة اجتماعية بينما لا يراها البعض الآخر هكذا لأنها تضع الأعراق في المكانات التي تليق بها .

٢-اعتبار المشكلات الاجتماعية شيئاً طبيعياً وأمراً لا يمكن تجنبه: البعض ينظر إلى المشكلات الاجتماعية على أنها حالات طبيعية محتومة يتعذر اجتنابها، وفي الواقع لا توجد هناك مشكلة محتومة ومتعذر اجتنابها إنما هناك ظروف معينة تعمل على إنتاج أو طرح أو إفراز ناتج لا محال لا يمكن اجتنابه أو منع وقوعه. أي أن المشكلة ناتجة عن القانون الطبيعي ويمتلك الحتمية الأكيدة.

٣-المشكلات الاجتماعية ما هي سوى حالة شاذة وغير عادية:

البعض من علماء الاجتماع ينظر إلى المشكلات الاجتماعية على أنها حالات غير طبيعية لأنها أحدثت كسر للنظام الاجتماعي أو اختراق أو انحراف عن السلوك الاجتماعي السوي السائد بين الناس، ويرى أصحاب هذا الرأي أن المجتمع يسير حسب قوانين موضوعة ومتفق عليها في المجتمع ويعد الخروج على هذه القوانين هو الشذوذ ويتطلب الحل التصدي لهؤلاء الخارجين وبالتالي يتم القضاء على المشكلة ، هذا التحديد أو هذه الرؤية تنطبق على بعض المشكلات *مثل* الإدمان على المخدرات أو بعض الجرائم.. ولكن في الواقع قد تحدث المشكلة بسبب من السلوك السوي وليس عن اختراق القوانين أو الخطأ.

٤-تتسبب المشكلة الاجتماعية من قبل الأشرار و السيئين من الناس:

هذه أوسع مغالطه على الإطلاق ، إذ أحيانا يحلل بعض الناس المشكلات الاجتماعية تحت مضمون الثنائية المتبادلة أو المتقابلة مثل طيب وسيئ أو مقارنة الأشرار مع الأخيار . وفي الواقع قد يكون الناس السيئون هم ضحايا لأخطاء يرتكبها غيرهم من الناس البريئون ، إن معظم المشكلات قد تصدر عن الناس الأخيار وبالذات عند الذين يتمتعون بعقلية تجارية أكثر من الأشرار .

٥- المشكلات الاجتماعية توجد بسبب كثرة الحديث عنها:

إن الحديث عن وجود مشكلة اجتماعية بين الناس كالفقر و البطالة و الجريمة أو هروب التلاميذ من المدرسة يعمل على إثارة مشاعرهم وهواجسهم وخيالهم ويوسع حجمها أو يبالغ في خطورتها بحيث تصور و كأنها معضلة مستعصية الحل تعيش في أحشاء المجتمع يفهمها السامع بأن المسئولين في المؤسسات الإصلاحية و العقابية غير قادرين على السيطرة عليها أو معالجتها . إذ أن تضخيم المشكل بين عامة الناس يعمل على إقلاقهم وعدم ارتياحهم فيصبح هذا التضخيم

مشكلة اكبر من حجمها و آثارها تتعسر على المصلحين معالجتها بيسر وسهولة، هذا الرأي خاطئ لأن كتم المشاكل وعدم الكتابة عنها لا يحل المشكلة وإنما يزيد من تفاقمها وتزداد حدتها.

٦- المشكلات الاجتماعية سوف تحل نفسها بنفسها:

يعتقد الكثير من الناس بأنه مع مرور الزمن وتواتر الأحداث وخضوع المجتمع لقانون التغير والتطور، فان المشاكل القائمة تكون في طريقها إلى الزوال وهذه رؤية غير واقعية إن لم تكن وهمية، لأن العمل والمثابرة من القيم الإسلامية التي أوصى الله عباده امتثالاً لقوله تعالى: " إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم" والتغيير يتم من خلال الجهود المثابرة والكفاح في مواجهة المشكلات التي تعيق تطور ونمو المجتمع.

٧-أماني الناس:

البعض من الناس لا يرغب في رؤية المشكلة محلولة وذلك إما لكون حلها يعود بتأثير سلبي عليهم، أو أن حلها يتعارض مع معاييرهم وقيمهم، أو لكون معالجتها مكلفة لهم .مثال: كأن يدفعوا ضرائب إضافية أو باهظة فتصبح إزالة المشكلة مؤثرة على نفوذهم وسلطتهم، لذا فإن بقاءها قائمة –في نظر هؤلاء الناس – داخل المجتمع يعزز نفوذهم ويزيد من تأثيرهم الاجتماعي ويقلل من خسارتهم المادية.

٨-عندما تصبح المشكلة حقيقية تكون محلولة:

من المعروف أن دراسة المشكلة تتطلب الحصول على الحقائق المتعلقة بها، وإن معرفة هذه الحقائق أمر مهم جداً ولكن الأهم من ذلك هو معرفة كيف نستطيع التحقق منها بواسطة التعرف على أبعادها وعناصرها. ويصبح للحقيقة معنى إذا استندت إلى قيم الإنسان، وعندما يكون للناس قيم مختلفة فإن وجود الحقيقة لا يستطيع حل عدم اتفاقهم. والحقائق التي يتم الحصول عليها تحتاج إلى تفسير وترجمة في صورة خطط علمية، تتطلب الكثير من الجهد والمال وأحيانا تغيير اتجاهات كثير من الناس.

٩- يمكن معالجة المشكلات الاجتماعية بعيدا عن تغير المؤسسات الرسمية:

يعتقد البعض بأنه يمكن معالجة المشكلة الاجتماعية دون دفع تكاليف معالجتها – ماديا أو معنويا – وهذا الاعتقاد بعيد عن الواقع لأن معالجة أية مشكلة يتطلب تغيرا سريعا وجادا في المؤسسات و ممارستها الوظيفية .

من الخطأ التوقع من قبل المرء بأن المشكلات سوف تحل بسهولة ويسر، ولكون المؤسسات تتغير ببطء فإنها لا تستطيع معالجة المشاكل بسرعة بل ببطء أيضا، وهذا يعني أننا لا نستطيع القضاء التام على (الفقر و البطالة و الجريمة) إنما يمكننا وضع برنامج متطور لتقليل حجمها وتأثيرها الاجتماعي، وفي نفس الوقت لا يمكن القضاء أو إقصاء (الأمراض العصبية و العقلية) من المجتمع إنما بإمكاننا تطوير وسائل علاجها في المستشفيات المتخصصة بها.

رؤى جديدة للمشكلات الاجتماعية

يحدد كل من روبرت نسبت وروبرت مرتون منطلقات تمثل صور جديدة تعكس مظاهر جديدة للمشكلات الاجتماعية لم يسبق لعلماء الاجتماع تناولها وتتمثل هذه الرؤيا في:

١-يبلور البناء الاجتماعي و الثقافة الاجتماعية (اللذان يعملان على تنسيق وتنظيم سلوك الأفراد وفق معاييرها وقيمها) ميلا خاصا نحو السلوك المنحرف و الاضطراب الاجتماعي كثمن للتنظيم الاجتماعي الذي تهدف إليه. بعبارة أوضح تتولد المشكلات الاجتماعية من جراء التنظيم ليس بقصد منها أو بهدف تحدده بل كإفراز غير مخطط وغير هادف.

٢- تؤدي إفرازات التغير والتطور الاجتماعي داخل المجتمع إلى نتائج سلبية يدفع ثمنها بعض الأفراد كسعر اجتماعي للتحولات الجديدة.

٣-غالبا ما تبرز الإفرازات الاجتماعية غير السوية في حيز الوجود بشكل غير مباشر و تتسع بنفس درجة ظهور التغير التي تأخذ اتجاه التعارض مع الأنماط المؤسسية للسلوك الاجتماعي السوي.

٤-وبناء على ما تقدم فإن دراسة و تفهم الاضطرابات الاجتماعية يتطلب دراسة وتفهم التنظيمات الاجتماعية لأنهما من الناحية النظرية متلازمان غير منفصلين

٥-استمرارا لهذا الاستدلال فإنه يمكن القول بأن كل بناء اجتماعي يتضمن مشكلات اجتماعية خاصة به تعكس نوعه وحجمه ودرجة تطوره.

٦-حاله متعلقة بالفقرات الخمس السابقة أن الأفراد الذين لهم ادوار ومواقع بنائية وانتماء طبقي إذا تعرضوا لاهتزازات وزلل اجتماعي فإن سلوكهم الاجتماعي يتعرض للانحرافات أو المخاطر أو التجريح أو التعريض أو النقد بسبب حساسية أدوارهم ومواقعهم البنائية.

٧-إذا تصرف شاغلوا المواقع البنائية تصرفا متناقضا مع مستلزماتها وشروطها أو قاموا بتصرف لا ينسجم أو يتناسب معها فإن الآخرين من حولهم (في مواقع العمل أو المجتمع المحلي) يوجهون سهام نقدهم لهم ويكثر اللفظ الجارح حولهم المفعم بالنميمة والاغتياب على التناقض الحاصل بين تصرفهم الاجتماعي و الموقعي.

٨-إن تكافل أقسام (أنماط أو انساق) البناء الاجتماعي يولد مشكلات ناتجة عنه .

٩- مشكلات نسق معين تخلق مشكلات جديدة لنسق آخر مثل مشكلات النسق السياسي تولد مشاكل للنسق الاقتصادي

المداخل النظرية لدراسة المشكلات الاجتماعية

تمهيد :

إن الكثير من المشكلات الاجتماعية ظاهرة واضحة للعيان ولا يختلف عليها الناس، فالفقر مشكلة ... والكل يعلم هذا ويبغضه ، والأمية مشكلة ... وغالبية الناس تعلم هذا وتستنكره ، والجرائم بكل أنواعها جزء من المشكلات الاجتماعية التي توجد في كل المجتمعات بدرجات متفاوتة ... والكل يستنكرها ... بدرجة أو بأخرى ، وانتشار تعاطي المخدرات بين الشباب ، في كثير من المجتمعات مشكلة خطيرة ... والكبار في تلك المجتمعات يحاولون جاهدين إيقاف سيلها ... الخ . كل هذه المشكلات وغيرها كثير مشكلات ظاهرة وواضحة ولكن هناك أنواعا من المشكلات الاجتماعية خافية وغير واضحة للكثيرين منا . وهذا لا يعني أنها غائبة أو غير موجودة أو غير خطيرة .

وعلى سبيل المثال فإن هناك مشكلة الأعداد الكثيرة من الناس الذين تقتلهم حوادث السيارات على الطرقات كل عام ، ورغم ذلك فإن الناس يخافون من ركوب الطائرات اعتقادا منهم بأنها أكثر خطرا من السيارات ، على الرغم من أن الإحصاءات قد أثبتت أن عدد القتلى من حوادث الطائرات أقل بكثير جدا من أعداد الذين يقتلون في حوادث السيارات .

ولو نظرنا إلى دول الخليج العربي وملايين من السيارات التي تجوب طرقاتها ، ومئات الحوادث التي تقع ، وأعداد الضحايا الذين يذهبون نتيجة لها ، وآلاف المصابين الذين يعيشون بقية أعمارهم ، وهم معوقون جسميا بسبب هذه الحوادث . إذا نظرنا إلى كل ذلك وضح لنا جدا هذا المثال . ومع ذلك فهل يعتقد الكثيرون منا بأن هناك مشكلة خطيرة ذات صفة مجتمعية ، بسبب سوء قيادة السيارات ..؟؟

الحقيقة أن المشكلة هناك بالفعل ، ونتائجها الخطيرة واضحة ومحددة في غرفة العمليات وفي تقارير الشرطة ودوائر المحاكم ، ولكن القناعة بها قد لا تكون ظاهرة أو واضحة للعيان ... كمشكلة اجتماعية خطيرة ، ومن هنا فهي مشكلة اجتماعية كامنة .

من خلال ما تقدم يمكن أن نستنتج أن الناس من خلال رؤيتهم العامة للمشكلة ،

أو من خلال عدم إحساسهم بها يعبرون عن تصوراتهم وقناعاتهم . فلو أننا أخذنا عينة من أفراد

المجتمع وسألناهم عن خطورة الطائرة وركوبها ، وعن مقارنتها بالسيارة لجاءتنا الإجابة سريعا بأن الطائرة هي المشكلة بحوادثها وأهوالها . ومعنى ذلك أن المشكلة هناك. ولكنها قد تخفى على الناس .

ونفس الكلام يمكن أن ينطبق على برامج التلفزيون الغير ملتزمة في بعض البلاد، والتي قد تؤدي إلى انحراف الكثيرين من الشباب ، فالناس قد لا يحسون بهذه الخطورة الكامنة فيها ، ورغم ذلك فهي هناك تفعل فعلها في عقول الشباب وأحاسيسهم، وفي توجيههم نحو الجريمة والانحراف .

ومما لاشك فيه أن الكاتب المنحرف ، أو الغير ملتزم يكون أثره مساويا لمثل هذه البرامج السيئة التي يذيعها التلفزيون أو يبثها للمشاهدين ، ورغم هذا فقد لا يدرك المجتمع . للوهلة الأولى . خطورة وجود عدد من الكتاب يكتبون في صحفهم ومجلاتهم، فينحرفون بالشباب في متاهات سحيقة قد تقودهم إلى طريق الجريمة والخروج على قيم الجماعة ومعاييرها السلوكية التي ارتضتها لنفسها .

ومن هنا نجد عددا من النظريات العلمية التي حاولت أن تفسر المشكلات الاجتماعية ، والتي ركزت على الجانب الاجتماعي ، كي تبتعد بها عن المشكلات الشخصية ، فالمشكلات الاجتماعية تتعامل مع مشكلات تتعلق بأعداد كبيرة من أفراد المجتمع ، وبالمشكلات التي تعترض حياتهم ، أو ينغمسون فيها ، أما المشكلات الشخصية **Personal Problems** فتتعلق بالأفراد ، وغالبا ما تكون مرتبطة ببعض المشكلات النفسية **Psychological** ... وعلى ذلك فإن هذه النظريات . كما سوف يتضح لنا . تميل إلى التفسير الاجتماعي للمشكلة ، أكثر من ميلها للتفسير النفسي .

وتتباين اتجاهات العلماء في تفسير أسباب المشكلات الاجتماعية لسببين:

١- تبني المفسر لاتجاه فكري واحد يتم في ضوئه تحديد وتفسير المشكلة الاجتماعية.

٢- تباين الظروف الاجتماعية والسياسية والاقتصادية لعلماء هذه المدارس أو الاتجاهات

السبب الأول: كل عالم يتبنى مدرسة فكرية معينة، تملي عليه اختيار نموذج معين يتم في ضوئه تحديد مشكلة الدراسة ومنهج التحليل والإطار النظري المستخدم في تفسيرها.

وباعتبار أن التغير الاجتماعي سمة المجتمعات فإنه تبعاً لذلك تختلف التفسيرات بحسب ظهور مدرسة جديدة تفسر الواقع الاجتماعي من خلال الفترة الزمنية التي نشأت فيها، وتلغي اتجاه المدرسة السابقة، ومن هنا يحدث ما يسمى بالثورة العلمية.

الثورة العلمية، هي أن يجبر العلماء على التخلي أو رفض النظرية وتبني نظرية أخرى تكون أكثر قدرة على تفسير الظاهرة الاجتماعية.

وتتمثل الوظيفة الأساسية للمدرسة الفكرية في تحديد ما هو هام، ليتم دراسته ووضع نماذج تصورية لتفسيره.

وفي ضوء ذلك تعتبر المدرسة الفكرية النظارة التي تكون رؤيتنا للعالم الاجتماعي، ولتغيير تلك النظارة يحدث ما يسمى بالثورة العلمية.

السبب الثاني: ظهر علم الاجتماع في ظل ظروف اجتماعية وسياسية واقتصادية دفعت المفكرين الاجتماعيين لتطوير نظرياته ومفاهيمه، ولذلك يعد علم الاجتماع نتاجا اجتماعياً لهذه الظروف. بالإضافة إلى أن علمائه ينتمون إلى جذور اجتماعية واقتصادية وسياسية متباينة، وهم اللذين صاغوا تلك النظريات والمفاهيم.أمثال: علماء مدرسة شيكاغو.

ومن النظريات العلمية المفسرة للمشكلات الاجتماعية:

نظرية البناء الوظيفي: **Function Structure Theory**

تستند مفاهيمها للنظرية الوظيفية البنائية التي تنظر للمجتمع على أنه بناء كلي، يتكون من مجموعة من الأجزاء المترابطة، وكل جزء له وظيفة يؤديها للمحافظة على استمرارية المجتمع، وجميع هذه الأجزاء تتعاون فيما بينها للوفاء بالاحتياجات الأساسية. ومن خلال ذلك يميل المجتمع إلى التوازن والاستقرار.

وتتألف الوحدات البنائية للمجتمع من المعايير والأدوار والنظم والقيم والجماعات والمؤسسات الاجتماعية، وتقوم جميع هذه الوحدات بوظائفها في مواجهة حاجات المجتمع ليتحقق التوازن.

ويتشكل الفعل الاجتماعي في ضوء المعايير والأدوار والنظم، بحيث يبدو لهذا الفعل بناء له طابع الاستقرار النسبي.

مستويات البناء الاجتماعي:

– الدور: الذي يقوم به فرد معين في إطار نظام اجتماعي، ويتمثل البناء في مجموعة من الظواهر السلوكية المتكررة والمترابطة التي يقوم بها الفرد وتترك أثر في النسق الذي يحويه. مثال الأم لها دور في الأسرة يتمثل في الإنجاب ورعاية الأبناء والمشاركة في الوظيفة الاقتصادية، ولها أثر في المجتمع من خلال ممارستها لوظائفها.

– النظام الذي يتألف من مجموعة من الأدوار المترابطة.

–المجتمع الذي يتألف من مجموعة من النظم المترابطة والمتساندة وظيفياً.

ومن فرضيات الوظيفية البنائية:

- الوظيفة: وترتبط بأثر السلوك الاجتماعي على النسق الاجتماعي.
- البناء: يرتبط البناء بالنمط السلوكي المتكرر، وهو تنظيم لمجموعة من الأنماط السلوكية المتكررة.
- التوازن: وله صورتان:

١– التوازن الاستقراري: ويشير إلى قدر ملائم من الاستجابة لتحقيق مطالب اجتماعية معينة.

٢– التوازن الدينامي: ويشير إلى استجابة تلاءم التغير الذي طرأ على النسق لإعادة توازنه.

وتحدث المشكلة الاجتماعية عندما يحدث أي تغير في أحد أجزاء النسق لأنه سيؤدي إلى تغيرات في الأجزاء الأخرى للنسق.

ويرى أنصار تلك الاتجاه أن هناك عدة أسباب تؤدي إلى حدوث المشكلات الاجتماعية، منها:

– التغير السريع أو المفاجئ للمجتمع بفقدان التوازن بين أجزائه التي تتميز بالترابط الوظيفي وصولاً إلى الكل. وبالتالي يصاب المجتمع بالخلل الوظيفي.

– فشل الأفراد في تمثل قيم المجتمع المتفق عليها.

– تنتج عن زيادة الاحتياجات الوظيفية للمجتمع **Over all functional**.

لكل نسق فرعي مشكلاته الاجتماعية الأساسية بحيث يصعب تفسير المشكلات التي تحدث في مستوى النسق ككل في ضوء المشكلات التي تحدث في أنساقه الفرعية.

بمعنى أن لكل مستوى من مستويات الأنساق مشكلاته النابعة منه والمعبرة عنه.

على سبيل المثال: الأسرة نسق فرعي داخل نسق أكبر المجتمع،. وبالتالي فإن دراسة مشكلات الأسرة كالتفكك الأسري لا بد أن يكون تفسيره في ضوء نسق الأسرة.

وتحدث المشكلة الاجتماعية عندما يحدث أي تغير في أحد أجزاء النسق لأنه سيؤدي إلى تغيرات في الأجزاء الأخرى للنسق.

نظرية التفكك الاجتماعي Social Disorganization Theory

حاول بعض العلماء الربط بين التفكك الاجتماعي وبين عمليات التغير أو التحول أو التطور داخل المجتمع التغير، على أساس أن التغير سيتبعه شيء من الاهتزاز في بعض ما هو موجود في المجتمع، ما لم يكن هذا التغير محكوما ومضبوطا. على اعتبار أن المجتمع مبني على أسس منظمة ومتضمناً أدوات ووسائل ضبطية (الضبط الاجتماعي) من أجل تماسكه وبقاء تنظيمه، وأي تغير في بنائه أو في احد مكونات بنائه سيؤدي إلى تفكك.

ويشير مصطلح التفكك الاجتماعي إلى معاناة الأفراد في تحقيق ذواتهم داخل التنظيم بسبب جمود أو تكلس بعض من قيمه.

ويتضمن التفكك الاجتماعي عدم كفاءة النسق الاجتماعي أو فشله في تحديد مراكز الأفراد وأدوارهم الاجتماعية المترابطة بشكل يؤدي إلى بلوغهم أهدافهم بصورة مرضية. ولا يعني الوهن التنظيمي غياب التنظيم الاجتماعي أو زواله.

إن عدم تحديد الأدوار الاجتماعية بكفاءة يؤدي إلى صراعات داخل المجتمع، ينتج عنها تفكك اجتماعي يعاني منه جماعات وأفراد المجتمع.

المعايير الاجتماعية التي يحدد في ضوئها التفكك الاجتماعي:

- درجة اتزان النسق الاجتماعي: على سبيل المثال: الأسرة نسق اجتماعي والعلاقة الزوجية الناجحة تساعد على اتزان النسق لأن كل من الزوجين يقوم بدوره الوظيفي، وإذا حدث خلل في أدوار أحدهما بسبب تعدد الأدوار وصراعهم يختل النسق وتحدث المشاكل الأسرية بسبب التقصير في الحقوق والواجبات الزوجية.
- تفكك في المجتمع المحلي: على سبيل المثال التقصير في وظائف النسق المتمثل في فقدان تعاون الأسرة مع المدرسة، والفساد السياسي، وارتفاع معدل الجريمة، والبغاء.

- البطالة التي تساعد على انتشار السلوك الإجرامي والإدمان على المخدرات وغيرها من السلوكيات الشاذة.

التحليل السوسيولوجي لمشكلة التفكك الاجتماعي:

- يحدث التفكك الاجتماعي عندما يكون هناك تغير في توازن القوى التي كانت تساند التنظيم في مرحلة معينة منه وتؤدي في نفس الوقت إلى فعالية قوى الضبط الاجتماعي المتعددة. فمثلاً: إذا ازدادت عوامل التغير الاجتماعي شدة في المجتمع الدينامي تؤدي إلى تفكك في العلاقات النظامية والأنماط السلوكية، وبالتالي يصعب بناء أنماط جديدة من السلوك أو العلاقات.
- عندما يتغير البناء الاجتماعي دون تحديد واضح للأدوار والمراكز تكون الفرصة مهيأة لظهور التفكك الاجتماعي، .
- التغير الاجتماعي يؤدي إلى إعادة ترتيب أجزاء البناء الاجتماعي عن طريق إيجاد قيم جديدة وأهداف جديدة تنعكس بدورها على البناء الاجتماعي.

مثال على عدم وضوح الدور وصراعه بسبب عوامل التغير الاجتماعي على المجتمع الدينامي:

- أثرت عوامل التغير الاجتماعي والثقافي على دور الزوجة في الأسرة العربية مما أدى إلى عدم انسجام توقعات الدور داخل الدور ذاته. فمثلاً:
- دور الزوجة في الأسرة العربية يتوقع لها الإنجاب ليكسبها المكانة الاجتماعية في النسق الأسري، ويتوقع لها الرشاقة وهذا يتعارض مع الحمل والرضاعة.
- دورها كأم يتوقع لها تربية الأبناء، وفي نفس الوقت دورها كموظفة أو طالبة يتوقع لها المواظبة في العمل ومذاكرة الدروس وفي نفس الوقت الاهتمام بالزوج والمساهمة بميزانية الأسرة والزيارات العائلية ..الخ
- هذه التوقعات لدور الزوجة في العصر الراهن يجعلها في صراع مستمر مما يؤدي إلى خلل في أداء الدور فيحدث التفكك بسبب النسق البنائي الذي وضع هذه التوقعات غير المنسجمة لتمارسها الزوجة العربية فأوجد لنفسه تفككاً في نسقه الأسري.

علاقة الحراك الاجتماعي بالتفكك الاجتماعي

يحدث التفكك الاجتماعي بسبب الحراك الاجتماعي العمودي في المجتمع الدينامي الذي يفتح باب التنافس لكل المؤهلين لشغل المراكز والمناصب فينجح في دوره كموظف ولكن قد لا يصاحبه نفس النجاح في دوره كزوج أو أب فتحصل صراعات متماشية مع الحراك الاجتماعي العمودي.

وقد يحدث التفكك الاجتماعي بسبب الحراك الاجتماعي الأفقي المبني على العلاقات القرابية والطائفية والتي لا تخدم المؤسسة الرسمية وإنما تخدم شاغلي المواقع الهرمية العليا في تنفيذ مصالحهم على حساب أفراد المجتمع فيحدث التفكك الاجتماعي ويفرخ تفككات فرعية داخل الأنساق مثل: الواسطة / المحسوبية/ الرشوة/ النفاق/ الطلاق/ انحراف الأبناء

نظرية التغير الاجتماعي **Social Change theory**

لقد تبنى بعض علماء الاجتماع فكرة مؤداها أن التغير الاجتماعي هو السبب الأصلي والمبدئي **The Primary Cause** للمشكلات الاجتماعية . و حاولوا أن يربطوا ذلك بالتحديد مع معدل التغير، فبينما قال بعضهم بأن سرعة التغير وراء المشكلات الاجتماعية، قال بعضهم الآخر إن اختلاف معدل التغير بالنسبة لأجزاء معينة مختلفة من المجتمع هو السبب في المشكلات.

والفكرة الأساسية خلف هذا التصور هو مصطلح وليم أوجبيرن **William Ogburn** " التخلف الثقافي **Cultural Lag** أو الفجوة الثقافية ".

ويقصد بالفجوة الثقافية الاحتفاظ بالتقاليد والعادات والتقنيات على الرغم من قدمها أو عدم ارتباطها بمجموعة المعايير الجديدة للثقافة المسيطرة.

وتحدث الفجوة الثقافية عندما يختل التوازن في سرعة النمو بين عناصر الثقافة، بحيث يتغير كل عنصر بسرعة متفاوتة عن العنصر الأخر، فيتغير أحدهما سريعاً بينما لا يتحرك العنصر الأخر أو يتحرك ببطء.

نظرية صراع القيم : **Values Conflict Theory**

القيم **Values** هي أحكام مكتسبة من الظروف الاجتماعية يتشربها الفرد ويحكم بها وتحدد مجالات تفكيره وسلوكه وتؤثر في تعلمه،وتختلف القيم باختلاف المجتمعات والجماعات، وقد تكون إيجابية مثل: الصدق الأمانة،تحمل المسئولية..الخ أو سلبية كالكذب، والغش، والنفاق..الخ

ويوجد في كل مجتمع مجموعات من القيم التي يشترك فيها جميع أفراد هذا المجتمع تقريباً، كما أن هناك قيماً تختص بها مجموعات معينه داخل المجتمع الواحد، وليس شرطاً أن تكون عامة بين جميع الأفراد، وهذه القيم الأخيرة تختلف من جماعة لجماعة .

وتمتاز المجتمعات الحديثة بالتنوع و اللا تجانس مما يؤدي انساقاً متعددة من القيم في المجتمع الواحد والتي لا يمكن أن تتفق فيما بينها، وبالتالي يحدث ما يعرف بالصراع حول القيم في المجتمع والذي يساعد على وجود المشكلات الاجتماعية فيه.

يحدث صراع القيم نتيجة للتباين والتفاوت بين أفراد المجتمع من حيث القوة والسلطة.

شعور أفراد المجتمع بالاضطهاد والظلم سيؤدي إلى ظهور الصراع بين الطبقات الاجتماعية في المجتمع.

تستند نظرية الصراع على أفكار كارل ماركس الكلاسيكية والآراء المعاصرة لعلم الاجتماع، التي تؤكد دور القوة الاقتصادية والسياسية على فرض رأي شخص ما على الآخرين.

تحليل أنصار ٢٠٢٠/٢٠١٧

الاتجاه الصراعي المشكلات الاجتماعية في ضوء:

- يتكون المجتمع من جماعات مختلفة ذات مصالح وقيم متباينة وكل جماعة تدافع عن مصالحها، وبالتالي نجاح جماعة ما يتسبب في وجود مشكلة لجماعة أخرى.
- الجهد المبذول لحل المشكلة الاجتماعية يتضمن محاولات من الجماعة المتضررة لإحداث تغييرات لانتزاع حقوقها من الأشخاص الذين يحتلون مراكز القوة.
- قد يعد صراع معين دافع للتغيرات الاجتماعية الضرورية.

صراع القيم **Values Conflict**

صراع القيم يعني دفاع الجماعة عن مصالحها. لكل جماعة قيم خاصة بها وتسعى من أجل إيجاد ظروف تتوافق مع قيمها، ولا يعكس الصراع بين جماعتين نتيجة لصراع القيم حالة من التفكك الاجتماعي. على سبيل المثال: صراع القيم الشيوخ ضد الشباب/ أو الملاك ضد المستأجرين/ أو الطلبة ضد المدرسون. وأهم شيء هنا ينبغي أن نتنبه إليه هو أن صراع القيم يعتبر من أخطر الصراعات، وأنه ليس من السهل أن يتوصل فيه الناس إلى حلول بسيطة ، وذلك لأن كل مجموعة تعتقد أنها على حق فيما يتعلق بقيمها التي تدافع عنها ، ومن ناحية أخرى بأنها ليست على استعداد للتنازل عن قيمها بيسر وسهولة .

الصراع الطبقي Class Conflict:

الصراع الطبقي في معيار علماء الاجتماع هو نتيجة حتمية لحركة التاريخ التي تتضمن مؤشرات القوة والسلطة.

يؤكد علماء الاجتماع أن الصراع الطبقي من أجل الاستحواذ على الثروة والقوة والسلطة هو المصدر الرئيسي للمشكلات الاجتماعية.

تهدف دراسة علماء الاجتماع للتدرج الطبقي إلى دحض أفكار الماركسية، التي ترى أن التغير التدرجي للمجتمع هو أفضل السبل لحل صراعات المجتمع من الثورة العنيفة.

نظرية الانحراف: Deviance Theory

نظرية الانحراف هذه ، وفقدان المعايير جاء بها عالم الاجتماع الشهير دور كايم Durkeim ، أحد مؤسسي علم الاجتماع الحديث .

يرى أصحاب هذا الاتجاه أن المشكلة الاجتماعية نتاج لقدر من الانحراف عن معايير المجتمع أكثر من كونها انهياراً عاماً.

ويرجع سبب المشكلة الاجتماعية إلى وجود أفراد أو جماعات تصر على أن تسلك سلوكاً ينحرف عن المعايير والقيم السائدة، وبالتالي يستند سلوكهم على معايير خاصة تتعارض مع التوقعات السائدة في المجتمع عن السلوك السوي.

يرى ميرتون في تفسيره للمشكلة الاجتماعية أن " لكل مجتمع أهداف معينة يسعى لتحقيقها، من خلال وسائل مشروعة ارتضاها المجتمع، ولكن داخل كل مجتمع نجد أن هناك بعض الأفراد أو الجماعات الصغيرة التي حرمت من تحقيق هذه الأهداف، وبالتالي فإنهم يتبعون وسائل غير مشروعة للوصول إلى ما يبتغون... وهم بذلك يخرجون على عرف الجماعة وعلى قوانينها التي ارتضتها " فينحرفون عن السلوك السوي.

وفي ضوء نظرية الانحراف أضاف علماء آخرين أبعادا أخرى لانحراف السلوك، منهم " سوثيرلاند Sutherland " الذي قال بأن الفرد في أي مجتمع يتعرض لمؤثرات أساسية من الجماعات الأولية Primary Groups ، وهم الأفراد الذين يتصل بهم مباشرة وله معهم علاقات حميمة أو قريبة وتفاعلات يومية، مثل: الوالدين ورفيق العمر، والأطفال، والأصدقاء المقربين .

والفرد في تعامله مع هؤلاء الأفراد يتعود على الأشياء الطيبة التي ارتضاها المجتمع لنفسه، وأحياناً لا يخلوا الأمر من بعض الأمور الجانبية غير الطيبة، والتي يسر بها الأصدقاء . مثلا . لبعضهم ، وهذه الأمور بطبيعة الحال قد تكون انحرافا عن معايير الجماعة التي ارتضتها لنفسها، وبالتالي فإن ارتكابها يشكل نوعا من المشكلات الاجتماعية مثال: التحرش الجنسي للأطفال.

ومن الاستعراض السابق للنظريات المختلفة التي حاولت أن تقدم تفسيرا أو أكثر للمشكلة الاجتماعية، نستطيع القول بأن التفسير الواحد أو الأحادي للمشكلة الاجتماعية ،قد لا يكون كافيا .

بمعنى أنه لدينا الآن نظريات خمس مختلفات ، وأصحاب كل منها يدعون بأن نظريتهم هي الأوقع ، وهي الأكثر عملية وعلمية ، في تفسير المشكلة الاجتماعية .... كما أنهم يتبنون تقديم حلول للمشكلات الاجتماعية بناء على تفسيراتهم المختلفة .

ولكن إذا كان لنا قول هنا، فهو أن المشكلة الاجتماعية . في الغالب . قد لا يمكن إرجاعها لسبب واحد، وبالتالي لا يمكن تفسيرها في ظل نظرية واحدة من هذه النظريات. إن المشكلات الاجتماعية شيء معقد ، وأحيانا بالغ التعقيد ، ومن هنا فإننا قد نضطر للجوء لأكثر من تفسير من تفسيرات هذه النظريات كي نرى أين تكمن جذور المشكلة . وما لم نقف على الجذور الحقيقية للمشكلة ، فإنه قد يصعب . إن لم يستحيل . علينا أن نجد لها حلا .

قد تكون المشكلة راجعة في مظهرها، وعند النظرة الأولى إليها للتفكك الاجتماعي (النظرية الأولى)، ولكن عند التعمق في بحثها قد نجد أن التغير (النظرية الثانية) قد لعب دورا هاما في إحداثها أو التسبب فيها ، وعند التعمق أكثر وأكثر ، قد نكتشف أن صراع القيم (النظرية الثالثة) كان خلف المشكلة ، وسببا كبيرا من أسبابها... الخ وهكذا نجد أن علينا ألا نقيد أنفسنا عند بحثنا في المشكلات الاجتماعية إلى تفسير واحد أو نظرية واحدة .

المداخل العلاجية المشكلات الاجتماعية

يتدخل الباحثون الاجتماعيون في مواجهة المشكلات الاجتماعية من خلال مستويين أساسيين يهدفان إلى تحقيق أهداف علاجية أو وقائية وهما:

١. المدخل العلاجي : **Treatment approach**

وهو مستوى يستهدف القضاء على مشكلات قائمة بالفعل ، ويعاني منها السكان. وإذا لم يستطع القضاء على المشكلات تماما أو نهائيا ، فهو على الأقل يحاول التخفيف منها قدر المستطاع .

وهذا المستوى هو الشائع بين معظم المجتمعات ، حيث يبدأ الاهتمام بالمشكلة بعد أن تظهر فعلا وتتضح مظاهرها ، أي أنه يتعامل مع الأعراض والنتائج دون الحاجة للرجوع للمسببات .

٢. المدخل الوقائي : Preventive approach

وهو الذي يتوقع فيه المسؤولون عن المجتمع حدوث المشكلات ، نتيجة لعلمهم بأسبابها مقدما، وبالظروف التي تؤدي إليها ومن ثم يبدؤن في اتخاذ العدة لذلك قبل وقوع البلاء، وتكون النتيجة السليمة هي قلة الخسائر ... أو حتى انعدامها ، وهذا أفضل كثيرا بطبيعة الحال ، ولكنه يتطلب الكثير من العلم والجهد والعمل .

ومن المهم أن نذكر هنا ، أن هذا المستوى الوقائي لمقابلة المشكلات الاجتماعية، يعتمد على نتائج العلوم الأخرى وعلى معطياتها مثل : علم النفس ، علم الاجتماع، علم الإحصاء ، الخدمة الاجتماعية ، والتربية ... الخ .

ولو ضربنا مثلا من واقع المجتمعات الخليجية ، وبالتحديد من المملكة العربية السعودية فإننا نذكر مثال المنطقة الصناعية . سواء في الجبيل أو في ينبع . عندما يتم إنشاء المصانع الضخمة فيها ، وحينما يبدأ تشغيلها بكامل طاقتها ، فلسوف يرد إليها آلاف البشر من جميع المستويات ، من العمال غير المهرة ، إلى العمال المهرة ومن المهندسين إلى الفنيين والخبراء ...الخ .

وكما هو الحال في معظم المناطق الصناعية الكبرى ، فسوف يقيم هؤلاء جميعا على مقربة من عملهم، وداخل هذا المجتمع الجديد سوف تنشأ مجموعات من العلاقات الطيبة، كما سوف تعترض الحياة فيها بعض المشكلات الاجتماعية ، وهذا أمر عادي ومتوقع .

والذي يستطيع المستوى الوقائي عمله ، لمجابهة المشكلات الاجتماعية هو معرفة أعداد هؤلاء العمال وفئاتهم ، وأعداد أسرهم ، وفئات أعمارهم ، وتوزيعهم جنسيا ... وهذا من عمل رجال الإحصاء .

ثم إن علما مثل علم النفس ينبغي أن يسهم ببحوثه ودراساته ، حول التعامل النفسي مع أصحاب هذه الفئات المختلفة ، وذلك من خلال الدراسات والبحوث السابقة في نفس المجال، ومن خلال الملاحظة المتعمقة لما يجري من تغييرات وممارسات على أرض الواقع . و كذا يستطيع

علماء الاجتماع و الخدمة الاجتماعية التقدم بما لديهم من دراسات حول المشكلات الاجتماعية التى يمكن أن تنشأ فى مثل المجتمعات الجديدة و كيفية مواجهتها.

3. المشكلات النفسية الاجتماعية

تعريف المشكلة النفسية الاجتماعية

ليس من السهولة بمكان تقديم تعريف محدد وشامل للمشكلة النفسية الاجتماعية، وذلك لعدة أسباب تتلخص في أنّ :

1- وجود مشكلة في مكان ما لا يعني أن هذه المشكلة عامة في جميع الأماكن.

2- مواجهة شخص لمشكلة ما تختلف عن مواجهة شخص آخر لها، بل ربما تختلف مواجهة الشخص نفسه من مشكلة إلى أخرى.

3- كلمة مشكلة إنما تثير عدة قضايا؛ فهل هي مشكلة طارئة أم مزمنة؟ وهل تظهر في فترة زمنية معينة ولأسباب خاصة؟

4- المشكلة حين تطفو على السطح، لا تظهر من تلقاء ذاتها، بل لا بد من تفاعل مجموعة من العوامل التي تشابكت وتعقدت حتى أفرزت تلك المشكلة، ومن ثم فإن التشخيص الدقيق لهذه العوامل هام جداً.

5- الحلول – بالنتيجة – لا تكون جزئية بل لا بد من أن تكون شاملة؛ فالجنوح مثلاً يكون نتيجة لتشابك العديد من العوامل، والتركيز على سبب ما لا يكون حلاً للمشكلة، وهكذا في باقي المشكلات.

والآن ما هي المشكلة؟ المشكلة تنشأ حين يعجز الكائن العضوي عن الوصول إلى هدفه بطريقة مباشرة. والمشكلة هي العائق الموجود في موقف ما، ويحول هذا العائق بين الفرد والوصول إلى هدفه. هذا على المستوى الفردي. كما يقدمه علم

النفس من خلال طرح قضية علاقة المشكلات بالتفكير. فهل ينطبق ما ينطبق على المستوى الفردي على المشكلات التي تواجه المجتمعات ككل، أم يجب أن تكون الاستراتيجيات مختلفة ومتباينة؟

وهذا يقودنا مباشرة إلى الدخول في إثارة تساؤل آخر؟ ما هي المؤشرات الدالة على وجود مشكلة على المستوى الفردي؟

استطاع علماء النفس أن يحددوا عدداً من المؤشرات التي من خلالها نستدل على أن الشخص يواجه مشكلة ما، وهي:

أولاً: شعور الشخص بأن هناك فجوة في معلوماته.

ثانياً: الهدف المراد تحقيقه تقف دونه صعاب وعقبات تستلزم من المرء مواصلة البحث لحل المشكلة.

ثالثاً: يتمثل الهدف الأساسي في وضع فروض تعد حلاً مؤقتاً، وتجريب استراتيجيات أو خطط لبلوغ الهدف والتوصل إلى الحل.

رابعاً: انتقال أثر التدريب من حل مشكلة ما على حل مشكلة أخرى.

خامساً: المشكلات التي تحتاج إلى تفكير لحلها تتراوح بين البساطة والتعقيد، ومن ثم فإن (التفكير) هو الآخر يتراوح بين البساطة والتعقيد.

سادساً: هناك فروق بين مشكلات تم تحديدها بدقة ومشكلات أخرى لم يتم التوصل فيها إلى مثل هذا التحديد، وكلما كانت المشكلة أكثر تحديداً كان ذلك أفضل (عبد الحليم محمود السيد وآخرون، 1990: 403 – 407).

نخلص مما سبق إلى تقديم التعريف التالي للمشكلات النفسية الاجتماعية:

إن علم المشكلات النفسية الاجتماعية ميدان بحث متميز بطبيعة خاصة لأنه يقوم على فهم دينامي للفرد وفهم دينامي للمجتمع، ثم على فهم لعلاقة دينامية الفرد بدينامية المجتمع، ومن ثم فإن هذا العلم يحتاج إلى نظرية خاصة به، ومنهج خاص به، وباحث تتوافر فيه مجموعة من الشروط (لأنه يتناول ظواهر معقدة ومتشابكة بل ومتغيرة من مرحلة زمنية إلى مرحلة زمنية أخرى)، وشروط خاصة يجب أن تتوافر حتى نستطيع تحديد المشكلات من غيرها، ومن هذه الشروط:

1- أن يقع في المشكلة أكبر عدد ممكن من الأفراد (وفقاً للمعيار الإحصائي الذي يقوم على الأغلبية).

2- أن تكون المشكلة نتيجة لتداخل وتشابك مجموعة من العوامل والمتغيرات سواء الاجتماعية والاقتصادية والنفسية وحتى الدينية... وغيرها من العوامل.

3- أن تكون للمشكلة أسباب وبقايا ونتائج على المستوى الفردي (حيث تتفاعل الأسباب داخل الشخص) وعلى المستوى الجمعي أو المجتمعي (حيث تكون لها أسبابها خارج نطاق الشخص وفي المجتمع).

4- أن تقتضي الحلول التي تقدم لهذه المشكلة الكثير من الجهد.

مشكلة الإساءة للأطفال

Child Abuse

يمكن القول إن الذين يسيئون التصرف تجاه أطفالهم إنما يعانون من اضطرابات صحية وسلوكية؛ إذ لا بد من وجود رابطة وجدانية – انفعالية آمنة بين الطفل ووالديه، وإن الافتقار إلى تلك الرابطة يقود إلى العديد من الاضطرابات النفسية الوخيمة. وقد أدى التركيز على مفهوم اضطراب دور الآباء والأمهات الذين يشتدون في القسوة على أطفالهم ويوقعون بهم الأذى، وكذلك على أهمية فحص نوعية رابطة التعلم الوجداني بين الطفل والقائم برعايته، إلى محاولة على الخصائص النفسية الاجتماعية المميزة لمثل هؤلاء الأطفال، مع الإشارة إلى أن تعرض الطفل للإساءة من قبل ذويه لا بد أن يترتب عليه حدوث أضرار نفسية بالغة (سلامة، 1993، 49 – 51).

تعريف الإساءة للأطفال

تعد قضية الاختلاف على تعريف محدد لمعنى الإساءة للأطفال من القضايا الخلافية الحادة، وذلك لعدة أسباب:

1- حداثة الاهتمام بهذه المشكلة.

2- تنوع المداخل التي تهتم بهذه المشكلة (المدخل الطبي، المدخل القانوني، المدخل النفسي، المدخل الاجتماعي).

3- اختلاف مناهج وطرق البحث العلمي.

4- ضرورة وضع استراتيجيات تهدف إلى الوقاية والعلاج.

والجدير بالذكر أنه ينبغي تقديم تعريف محدد لمعنى الإساءة للأطفال. وهنا لا نملك سوى أن نقدم بعض التعريفات.

- الطفل المشار إليه هو كل فرد تحت سن الثامنة عشرة ويتعرض للجروح الجسمية أو العقلية أو الاعتداء الجسمي أو الإهمال أو إساءة المعاملة من الشخص المسؤول عن رعايته، مما يؤدي إلى الإضرار بالطفل أو تهديد صحته وسعادته.
- الإساءة هي أي فعل، من جهة الآباء أو الأمهات أو شخص ما أو مؤسسة ما أو من المجتمع ككل، من شأنه أن يؤدي إلى حرمان الطفل من المساواة في الحقوق والحرية أو يقود إلى عرقلة قدرات الطفل وإبعادها عن تحقيق أفضل تطور ونمو ممكنين لإمكاناته بالقهر أو بالقوة.
- إن الإساءة للأطفال يختلف معناها من حضارة إلى أخرى، ومن ثقافة فرعية داخل المجتمع الواحد إلى ثقافة فرعية أخرى في المجتمع، ومن طبقة اجتماعية إلى أخرى، ومن الذكور إلى الإناث، بل ومن مهنة إلى أخرى.

- بعد أن تنتهي موسوعة الإساءة للأطفال، من تقديم ما سبق من تعريفات واجتهادات في هذا الأمر، تقدم هذه المحاولة للتعريف أخذة في اعتبارها العديد من الجهات التي تتعامل مع الطفل المساء إليه.

أ- **الاتجاه القانوني:** يستند إلى قانون العقوبات وحماية الأطفال بقوة القانون. وتسمح وجهة النظر هذه بالتدخل في حياة أسرة ما إذا توافرت أدلة واضحة تؤيد خروج حياة أفراد هذه الأسرة القائمين على رعاية الطفل عن المعتاد، وهنا يتدخل القانون ليجبر الأسرة على اتباع أساليب معينة.

ب- **الاتجاه الطبي:** ينظر إلى الجناة على أنهم منحرفون ومرضى ويحتاجون إلى العلاج. ولن يتوفر الاتجاه الطبي إلا من خلال ما يلي:

1- تحديد الإصابات الجسمية.

2- التأكد من هذه الإصابات طبياً بأكثر من وسيلة منها الفحص والتصوير الإشعاعي... إلخ.

3- مع فحص التاريخ نجد أن هذه الإصابات قد تكررت وأن لها تاريخاً سابقاً مما يؤكد نزعة العنف من الآباء تجاه الأبناء.

ج- **الاتجاه النفسي والاجتماعي الذي يرى الآتي:**

1- لجوء الآباء إلى العقاب ليس بصورة عفوية وإنما مقصودة ومتكررة إنما يعكس خللاً في بنائهم النفسي.

2- هـؤلاء الآبـاء في حاجـة إلى العـلاج النفـسي الاجتمـاعي، والاقتـصار في التعامـل علـى الأطفـال المـساء إلـيهم دون عـلاج الـسبب الحقيقـي (أي الوالدين) يعد تصنيعياً للوقت.

3- وجوب تقديم رعاية وعلاج نفسي للضحايا مـن الأطفـال وإزالـة الآثـار النفسية السلبية التي ترسبت في نفوسهم جراء هذه الإساءة.

4- التركيز على أساليب الإساءة المتنوعة التي تمارس ضـد الطفـل، وخاصـة: الخبرات السيئة – المعـايرة بالألفـاظ والكلمـات – الـسب بألفـاظ نابيـة – التحقير من شأن الطفل – مقارنته بأطفال آخرين حتى يستنتج الطفل أنـه فاشل ومنحط – الإهمال وعدم تلبية رغباته المشروعة – إحساس الطفـل دائماً بأنه منبوذ وغير مرغوب فيه- قهره على أداء سلوكيات معينـة تـترك آثاراً نفسية وربما جسدية سيئة لدى الأطفال (Clark, 1989)

- ويعرف صالح حزين (1993) الإساءة للأطفال في دراسته بأنها:

سلوك التدخل أو عدم التدخل من الآباء أو القائمين على رعايـة الأطفـال مما يؤدي إلى حدوث الإصابة أو جروح جسمية أو يترك آثاراً نفسية سـيئة على الأطفال تعيق نموهم النفسي وتؤثر في شخصيتهم تأثيراً سالباً. ونحـن نتفق مع هذا التعريف.

أنواع الإساءة للأطفال

لعل من أسباب عدم الاتفاق على تعريف محدد متفق عليه بين المهتمين بدراسة ظاهرة الإساءة إلى الأطفال لتلك الظاهرة المنافسات المتعددة بين الباحثين بهدف تحديد طبيعة الإساءة، وهل هي مادية فقط (يمكن رؤيتها والاستدلال عليها) أم يمكن أن تكون نفسية (داخلية وليس من السهولة الإفصاح عنها)؟ وهل الإساءة مقصودة أم تتم بالمصادفة وبعدم القصدية؟

أولاً: العقاب البدني والإساءة والإصابات الجسمية:

شرع العقاب وسيلة للضبط الاجتماعي، وما دام الأمر كذلك فإننا نستطيع أن نستنتج أن كافة الأطفال بلا استثناء معرضون للإساءة. وفي العديد من الدراسات التي أجريت في الغرب اختلفت آراء الآباء والأمهات حول استخدام العقاب البدني وسيلة للضبط. وتتراوح الآراء بين المؤيد للضرب من آن لآخر وبين المحبذ لضرورة استمرار استخدام الضرب كطقس يومي – نظامي. كذلك تنوعت الآراء فيما يتعلق بأداة الضرب ابتداءً بفرشاة الشعر والحزام وانتهاء بأدوات أخرى أكثر عنفاً وإيذاءً.

كذلك اختلفت الآراء فيما يتعلق باستراتيجيات العقاب والضبط والهدف منه؛ هل هو لتهذيب الطفل وإخضاعه للنظام؟ أم لتأكيد السلطة؟ أم لتفريغ طاقات العنف العدوانية المحبوسة في صدور مما يجعلهم يقومون بعملية نقل لهذه المكبوتات (مطبقين المثل الشعبي الشهير: لم يقدر على الحمار فعضّ البردعة)؟

وهل الآباء يقومون بشرح الأخطاء التي وقع فيها الطفل عند عقابه أم يتم العقاب بدون شرح (سلامة، 1993: 56 – 59).

وعموماً، فإن العلماء اتفقوا على ضرورة اتباع الآتي فيما يتعلق بالعقاب:

1- ضرورة أن لا يتم العقاب.

2- إذا تم، فيجب أن يتم في أضيق نطاق.

3- ضمن هذا النطاق المحدود لا بد من توافر مجموعة من الشروط مثل:

أ- أن يعرف الطفل لماذا يعاقب.

ب- إذا تقرر العقاب فلا يجب تأجيله.

ج- أن يكون العقاب مناسباً للسلوك الذي قام به الطفل.

د- أن يكون الهدف من العقاب الإصلاح وليس الإهانة أو الانتقام.

هـ- إذا تكرر السلوك الخاطئ يتكرر العقاب نفسه (حتى نثبت في عقلية الطفل أن هذا سلوك خاطئ ويجب تجنبه، لأن عقابه في مرة – على سلوك ما – وعدم عقابه مرة ثانية على السلوك نفسه يخلق حالة من عدم الاستقرار ويؤدي بالتالي إلى تدهور في منظومة القيم).

ثانياً: الآثار النفسية: ليس بالضرب وحده وبالإصابات الجسمية وحدها تتم الإساءة للطفل. العديد من الأفعال والكلمات والإشارات بل والنظرات العدوانية التي تصيب الطفل نفسياً، بل يمكن أن تصيبه في مقتل.

ومن الأمثلة على ذلك:

أ- حرمان الطفل من الطعام لفترة طويلة.

ب- حرمان الطفل من مصروف اليد لفترة طويلة.

ج- طرد الطفل من المنزل عقاباً له.

د- حرمان الطفل من الرعاية الطبية الضرورية.

هـ- حرمان الطفل من الانتظام أو الالتحاق بالتعليم.

و- حرمان الطفل من الألعاب والخروج والتنزه.

ز- إعطاء الطفل عقاقير منومة للتخلص من مطالبه، دون حاجة الطفل- النفسية والجسمية – إلى هذه العقاقير.

ح- استغلال الأطفال استغلالاً سيئاً، والأمثلة كثيرة على ذلك.

ط- الاعتداءات الجنسية من الكبار على الأطفال.

ي- التحقير من شأن الطفل واتهامه بالتخلف والفشل.

ك- سب الطفل بألفاظ نابية أمام أقرانه وأمام آخرين.

ل- مقارنة الطفل مع أطفال آخرين قد تفوقوا، بهدف تثبيت فكرة احتقار الذات في نفسية الطفل.

م- السخرية المستمرة من الطفل ونقده بل والمبالغة في ذلك.

ن- إطلاق اسم غير مرغوب فيه على الطفل ومناداته به لتأكيد الاحتقار له.

س- عدم إتاحة الفرصة للطفل للتعبير عن آرائه؛ أي كبت حريته وجعله أقرب إلى الآلة التي بلا إحساس أو حياة.

الإساءة الانفعالية Emotional Abuse

يشار إلى الإساءة الانفعالية باعتبارها إساءة نفسية (Hart et al., 1996). وقد عرفت باعتبارها "استخدام تهديدات لفظية متزايدة، وسخرية، وتعليقات مهينة شخصياً، وعبارات ازدرائية، وتهديدات.. إلى حد أن الرفاهية الانفعالية والعقلية قد تتعرض للخطر" (Walker et al., 1998: 8). كما بين أوتس (Oates, 1996) أن الإساءة الانفعالية تميل إلى أن تعرف من خلال العواقب التي تحدث للطفل أكثر من أن تعرف من خلال سلوك المرتكب. وهذا الشكل من الإساءة هو الأكثر صعوبة للإثبات من منظور قانوني وأقل احتمالاً لأن يثير اهتمام وكالات حماية الطفل التي تركز بشكل أكبر على الإساءة البدنية والجنسية.

مشكلة العنف

Violence

مقدمة

ليس من السهولة بمكان تحديد الوقت الذي نشأ فيه العنف، وذلك أن هذه الظاهرة قديمة قدم الإنسانية، ولذا فهي ظاهرة تشمل كافة المجتمعات بأسرها. ولم يعد العنف مقصوراً على الأفراد، وإنما اتسع نطاقه ليشمل المجتمعات، بل ويصدر أحياناً من الدول والجماعات.

وقد أشار القرآن الكريم إلى دافع العدوان، ثم اللجوء إلى العنف، وذلك في قصة قابيل وهابيل، والتي تعد أول جريمة عنف تقع بسبب الغيرة والحسد والحقد، ومن يومها فإن تيار العنف قد استشرى وتعددت صوره وملامحه.

تعريف العنف Violence

- يعرف العنف في لسان العرب بأنه الخرق بالأمر وقلة الرفق به، وأعنف الشيء؛ أخذه بشدة، والتعنيف هو التعبير والتقريع واللوم.
- العنف هو استخدام الضغط والقوة استخداماً غير مشروع أو غير مطابق للقانون، والعنف يعني التأثير على إرادة فرد ما.

- العنف هو فعل إيذاء معنوي – مادي – لساني، يدوي ويمارس فردياً أو جماعياً ومنتظماً في كل حال فالفعل العنيف بشقيه النفسي والاجتماعي وبهدفه المعنوي (النيل من شخصية الآخرين مثلاً) والمادي. (النيل من وجود الآخر) يضعنا في مواجهة فاعل بقصد العنف.
- ويشير مصطفى حجازي (1993)، إلى عدة معانٍ لمفهوم العنف يحددها في:

1- العنف هو الوسيلة الأخيرة في يد الإنسان للإفلات من مأزق ومن خطر الاندثار الداخلي الذي يتضمنه هذا المأزق.

2- العنف هو السلاح الأخير في الإنسان لإعادة شيء من الاعتبار المفقود للذات، ومن خلال التصدي المباشر أو غير المباشر للعوامل التي تعد المسؤولة عن ذلك التبخيس الوجودي الذي حل به.

3- العنف هو لغة التخاطب الأخيرة الممكنة مع الواقع ومع الآخرين حين يحس المرء بالعجز عن إيصال صوته بوسائل الحوار العادي، وحين ترسخ القناعة لديه بالفشل في إقناعهم بالاعتراف بكفاءته وقيمته.

4- العنف هو الوسيلة الأكثر شيوعاً لتجنب العدوانية التي تدين الذات الفاشلة بشدة من خلال توجيه هذه العدوانية إلى الخارج بشكل مستمر أو دوري، وكلما تجاوزت حدود الاحتمال الشخصي.

5- العنف قد يكون عشوائياً مدمراً يذهب في كل اتجاه أو يكون بناء يوظف في انحراف تغيير الواقع، ولكنه موجود أبداً، ولو اتخذ ألف وجه ولون

واتجاه، ما دام هناك مأزق وجودي يمس القيمة الذاتية ويولد التوتر الداخلي، وبدت إمكانات الخلاص محدودة وآفاقه مسدودة.

6- العنف هو الاستجابة التي تعقب الإحباط، ويراد بها إلحاق الأذى بفرد آخر، أو حتى بالفرد نفسه. (مصطفى حجازي، 1993: 173).

- وفي دراسة لمفهوم العنف لدى مجموعة من المثقفين (1998) كانت أهم النتائج:

أ- اختلاف مفهوم العنف لدى المثقفين.

ب- عدم الاتفاق على تعريف محدد للعنف ومظاهره.

ج- وجود خلط بين مفهوم العنف والعديد من المفاهيم الأخرى المرتبطة به، مثل: الإرهاب – التطرف – التعصب – العدوان – الإجرام ... إلخ.

وهذا يقتضي منا أن نحدد أولاً: علاقة العنف بالعديد من المفاهيم المرتبطة به.

العنف والعدوان Violence and Aggression

من خلال ما توفر لدينا من مراجع نجد الآتي:

1- أن الفرق بين العنف والعدوان هو فرق في الدرجة والكم فقط، ويمكن اعتبار العنف هو نهاية المطاف لسلوك عدواني مستمر، حيث يمكن تعريف العدوان بأنه عقد العزم والإصرار على مطاردة وملاحقة

اهتمامات الفرد. أما العنف فهو ملاحقة هذه الاهتمامات بالقوة أو التهديد باستعمال القوة وملاحقتها. وفي هذا الاتجاه نجد التعريف الذي قدمه سعد المغربي (1987) للعنف من حيث أنه استجابة سلوكية تتميز بصيغة انفعالية شديدة قد تنطوي على انخفاض مستوى البصيرة والتفكير. وعلى ذلك فليس من اللازم أن يكون العنف قريناً للعدوان، وليس من اللازم أن يكون العنف ملازماً للشر والتدمير، ولذلك كثيراً ما نقول في أحاديثنا: فلان يحب فلاناً (موت)، أو يكرهه (موت) .. وكلها ألفاظ تشير إلى الشدة في الدرجة.

2- هناك من يخلط بين العدوان والعنف، ويرى أن لا فرق بينهما، وأن العنف هو العدوان. ولذا لا يرى سيد عويس – مثلاً – أن العنف سلوك عدواني أو هو وليد شعور بالعداوة، وأن الشعور بالعداوة قد يوجد ضد الطبيعة، أو يوجد من أفراد إلى أفراد، أو من أفراد إلى جماعات منظمة، أو من جماعات منظمة إلى جماعات أخرى. وأنماط الشعور بالعداوة عديدة. (سيد عويس، 1988: 36 – 38).

العدائية والعدوان Hostility and Aggression

يرى باص Buss (1980)، أن العدائية تكون مدعمة بالأذى، ويفرق إدموندز Edmunds بين العدائية والعدوانية كالآتي:

- يستخدم مصطلح العدائية Hostility للإشارة إلى الميول العدوانية المدعمة بصورة جوهرية أساسية.

- يستخدم مصطلح العدوان Aggression للإشارة إلى الميول العدوانية تدعيماً عرضياً (Edmunds et al., 1980 : 22).

ويرى سول Saul أن كلمة عدواني تستوعب في معناها بعض ضروب السلوك الإيجابي كالمبادأة أو تأكيد الذات، في حين أن كلمة عدائي لا تشير إلا إلى العنف والقوة وما شابههما من ظواهر سلبية أخرى.

ولذا فإن شيفر Schaefer يفرق بين السلوك العدواني وتأكيد الذات، فالفرد في تأكيده لذاته إنما يركز على حقوقه ومشاعره وحاجاته، بينما يركز في حالة العدوان على مهاجمة الآخر والنيل منه. (Schaefer, C. E., 1981 : 242).

الإرهاب والعدوان Terrorism and Aggression

خلت المراجع القديمة من ذكر معنى كلمة إرهاب؛ لأنها كلمة حديثة أقرها المجمع اللغوي حديثاً، وجذرها رهب أي ارتعب وخاف. والإرهابيون في المعجم الوسيط هم الذين يسلكون سبيل العنف والإرهاب لتحقيق أهدافهم السياسية.

ويرى سعد المغربي أن الإرهاب هو في الشكل وفي المضمون عدوان مرضي، وهو يقترب في الكثير من صوره ودوافعه وأهدافه من السلوك الإجرامي.

ويختلف الإرهاب عن العنف الجماعي في أن الإرهاب ينطوي على رسالة تحذيرية ما للوسط المحيط تثير الرهبة والفزع في نفوس كل أفراد الجماعة التي ينتمي إليها الفرد الضحية أو موضوع الفعل. أما في العنف الجماعي فتكون الضحايا التي تفرغ فيها الشخصية العدوانية عدوانها هي المستهدفة بالتحديد في تلك الخطة،

أضف إلى ذلك أن الإرهاب يتسم بالاستمرارية وخلق مناخ من التوتر والتأهب لعمليات أخرى حتى يتحقق الهدف الذي ترمي إليه الجماعة التي تمارسه، في حين يمكن القول إن العنف الجماعي له بداية وذروة ونهاية كحدث أو فعل.

العنف والتعصب:

التعصب مصطلح يشير إلى العديد من السمات التي تميز الشخص المتعصب عن غيره من قبيل: الجمود – التصلب – العدوانية – الأحكام المسبقة- والقوالب النمطية – السيكوباتية وهي تعد من الخصائص الشخصية المرضية التي تدفع للعدوان والاتجاه نحو العنف. وفي هذا الصدد يشار إلى التعصب على أنه: تلك المعتقدات والاتجاهات المتعلقة ببعض المساوئ التي يراها فرد أو جماعة في أقلية عنصرية أو أقلية أو قومية أو لذلك فإن العنف هو أحد أشكال التعبير عن التعصب، حيث يحتقر الشخص الأشخاص الآخرين الذين يخالفونه في أشياء معينة حتى وإن كان ذلك تشجيع فريق كرة قدم ويوجه عدوانه أو عنفه اتجاههم.

الغضب والعنف:

الغضب anger هو انفعال يتميز بدرجة عليا من النشاط في الجهاز العصبي وبشعور قوي من عدم الرضا سببه خطأ وهمي أو حقيقي. ويستجيب الشخص للانفعال والغضب بتوجيه العنف إلى العقبات التي تعوق إشباع دوافعه أو تحقيق أهدافه، سواء كانت تلك العقبات أشخاصاً أو عوائق مادية أو قيوداً اجتماعية،

كثيراً ما يحدث باستخدام ميكانيزم النقل displacement أن ينقل الشخص غضبه أو يحوله إلى أشخاص آخرين لم يكونوا هم في الحقيقة سبب الإحباط الذي فجر الغضب والذي فجر بدوره العدوان والعنف.

والخلاصة أن العنف هو قمة العدوان ويأخذ ثلاثة اتجاهات أو أشكال:

أ- عنف موجه ضد الذات، ويصل إلى قمته في إقدام الشخص على الانتحار.

ب- عنف موجه ضد مصادر الإحباط التي تقف عقبة كأداء أمام إشباع رغباته أو تحقيق أهدافه

ج- عنف موجه ضد بدائل أخرى.

مشكلة الفقـــر

مقدمة

الفقر حالة اجتماعية متزامنة ومترادفة مع وجود حالة الغنى داخل المجتمع الإنساني، والاثنان موجودان في كافة المجتمعات الإنسانية وفي كل مرحلة زمنية. وكما نعلم، فإن انجذاب علماء الاجتماع كان دائماً نحو المشكلات والظواهر الاجتماعية في دراساتهم، لكن الأكثر جذباً لهم هي الظواهر والمشكلات التي تشمل نطاقاً واسعاً في المجتمع وتؤثر فيه سلباً أكثر من تلك التي تؤثر فيه إيجاباً. ففي القرن التاسع عشر كان هناك فقر في أوروبا، لكنه لم يدرس من قبل الباحثين الاجتماعيين بشكل مفصل ومستقل بل مصاحباً لمشكلات اجتماعية أكثر خطورة منه أو مرتبطاً بحالات أعمق أثراً في المجتمع. لكن بعد الأزمة الاقتصادية العالمية (مرحلة الكساد الاقتصادي الكبير) في عام 1930 تفاقمت هذه الحالة الاجتماعية البائسة فلم تعد آنذاك ظاهرة اجتماعية، وإنما أصبحت مشكلة اجتماعية أدت إلى نمو شريحة اجتماعية كبيرة داخل المجتمع. بعد هذا التفاقم الإشكالي التفت إليها علماء الاجتماع في بحثهم عن أسبابها وأنواعها وكيفية معالجتها؛ فظهرت دراسات متباينة في تحليلها لمشكلة الفقر، وذلك لأن لمشكلة الفقر أسباباً مختلفة، بينما الفقر كظاهرة اجتماعية له صفات متشابهة في معظم أنواع المجتمعات، فصفات الفقر في الهند تتقارب من صفات الفقير في الولايات المتحدة (على سبيل المثال لا الحصر)، لكن مشكلة الفقر في الولايات المتحدة ليست ذاتها في المجتمع الهندي وذلك من

حيث نسبة الفقراء داخل المجتمع ونوع ثقافتهم الاجتماعية ومستوى معيشتهم قياساً إلى مستوى المعيشة العام. أضف إلى ذلك اختلاف معايير تحديد الفقر في المجتمع؛ إذ هناك معيار حتمي مطلق (وهو الدخل السنوي للأسرة الفقيرة) ومعيار نسبي (يشمل مستوى المعيشة الذي يتضمن مستوى المسكن والملبس والطعام ونوعه وصفاته).

يرى بعض الاجتماعيين الأمريكان أن تطور النظام الصناعي المعاصر أنتج ثروة ورخاء كبيرين ورفاهية واسعة للعديد من الناس، لكنه في الوقت ذاته خلق ملايين من البشر ممن يعانون من البطالة التي أدت إلى الفقر الذي مزج العديد المشكلات الاجتماعية (جنوح وجريمة وطلاق وإدمان على المخدرات والمشروبات الكحولية)، لأن تطور الآلة الإنتاجية وتعقيد بنائها أدّيا إلى الاستغناء عن العديد من العمال المهرة لعدم الحاجة لهم، فباتوا في بطالة قاسية وعاشوا في فقر بائس، ومن هنا جاء اقتران بطالة العمال غير المحددة مع الفقر.

وفي الواقع، فنحن لا نعترض على هذه الرؤية لأنها واقعية، إنما نجد مشكلة الفقر قبل تطور النظام الصناعي في المجتمع الأوروبي؛ فقد كانت موجودة في المجتمعات الإقطاعية في أوروبا إبان القرون الوسطى وكانت موجودة أيضاً في الريف (لكن بنسبة قليلة)، بيد أن نسبتها ازدادت بعد تطور النظام الصناعي مع التوسع الحضري في المدن. ونقول إن مشكلة الفقر موجودة في كل مجتمع لا يمارس العدالة الاقتصادية – الاجتماعية، وهذه حالة كائنة في كل المجتمعات لكنها نسبية تزداد وتقل حسب الوعي الاجتماعي والاقتصادي والسياسي لأفراد المجتمع؛ إذ كلما زاد هذا الوعي قلت نسبة الفقر، والعكس صحيح.

تحديد مفهوم الفقر

ينبغي أن نطلع على أكثر من وجه واحد للفقر من أجل تشكيل صورة متكاملة – إن أمكن – لهذه المشكلة الاجتماعية المزمنة التي وجدت دائماً في المجتمعات الإنسانية. يعرف جورج زمل (منظر ألماني قديم) الفقر بأنه "تحديد الناس لمستوى عيش معين يعدون ظروفهم دونه حالة فقر". وإذا أردنا أن نناقش هذا التحديد، فإننا نرى أن الفرد لا يحكم على مستوى عيشه بأنه يمثل حالة فقر إلا بالنظر إلى ما يجده الآخرون الذين يعيش في وسطهم ويصفون وضعه المعاشي بأنه يشير إلى حالة فقر. وهذا يعني أن لا أثر للدخل اليومي أو الشهري أو السنوي في تحديد جورج زمل للفقر، بل اكتفى بحكم الآخرين على مستوى العيش لشريحة اجتماعية معينة ولم يعط أية أهمية (زمل) للوعي السياسي كمؤثر على نظرة الفرد لذاته.

وهناك لويس كوسر (منظر أمريكي معاصر) الذي حدد الفقر بأنه "وصم المجتمع حياة جماعة اجتماعية معينة بأنها تعيش ضمن دائرة الفقر" وهذا التحديد مشابه جداً لتعريف زمل للفقر، لكن الفرق الطفيف بينهما هو أن كوسر استخدم عبارة (وصم) المجتمع لمستوى معاشي معين بأنه يقع ضمن دائرة الفقر، وهذا لا يختلف كثيراً عن (نظرة الناس) التي استعملها زمل في تحديده للفقر.

ولا غرابة في هذا التشابه بين كوسر وزمل، لأن الأول تلميذ الثاني ومن المتوقع أن يحصل مثل هذا التقارب بينهما. ونشير هنا كذلك إلى تحديد الوظيفيين الاجتماعيين للفقر الذين يرونه أحد إفرازات الخلل الذي أصاب النظام الاقتصادي في أداء وظيفته بالطريقة السوية أو المألوفة.

هذا التحديد (تحديد الوظيفيين الاجتماعيين) يرجع الفقر إلى عجز النظام الاقتصادي في المجتمع الرأسمالي عن الاستمرار في القيام بأنشطته الإنتاجية دون الاستغناء عن العمال الذين كان يستخدمهم في العمليات الإنتاجية. وقد أرجع (هذا التحديد) عجز النظام الاقتصادي إلى التصنيع المتسارع الذي صدع النظام الاقتصادي فخلق فيه اضطرابات وقلاقل يصعب إصلاحها. هاك مثالاً على ذلك: عندما يحصل تطور تقني في مصنع ما، فإن العمال غير المهرة يحولون إلى العمل في الأعمال الخدمية التي لا يحصل فيها العامل على أجر عالٍ، وهذا يؤدي إلى هبوط في مستوى الدخل لشريحة اجتماعية واطئة الدخل أصلاً. ثم إن مجيء (الأتمتة) أي استخدام المكائن والمعدات المعقدة التي تنتج سلعاً هائلة في وقت قصير قاد إلى الاستغناء عن العديد من العمال الذين كانوا يعملون على الآلات والمعدات الأولية التي استغني عنها، الأمر الذي أدى بهؤلاء العمال غير المهرة إلى التخلي عن مهاراتهم الابتدائية لأن الإنتاج الجديد لا يحتاج إلى أيدٍ عاملة ماهرة ولا إلى المكتبيين الذين لا يقومون بأعمال إدارية متقدمة أو متطورة. وفي ظل هذا الوضع التقني المتطور قام مالكو وسائل الإنتاج باستخدام التمييز الجنسي والعمري بين العمال لكي يستغنوا عن العاملات وعن العمال المتقدمين في السن، فنشأت بطالة بين النساء والمعمرين أدت إلى أن يخسر المجتمع طاقات كان يعتمد عليها في الماضي.

هذا من جانب. ومن جانب آخر، فإن عجز النظام الاقتصادي لم يتأت من هذه الأسباب فحسب بل من الإجراءات الديوانية (البيروقراطية) المملة وعدم كفاية الأموال المخصصة لخدمات الإنعاش الاجتماعي للعمال وعدم تناسق دورات التدريب والتأهيل المهني للعمل. ذلك كله يعمل على تعثر مسيرة النظام

الاقتصادي في أداء مناشطه. ويرى الوظيفيون أيضاً أن السبيل الأفضل في التعامل مع مشكلة الفقر هي إعادة تنظيم النسق الاقتصادي بكيفية أكثر فاعلية وعدم إهمال الفقراء، بل دمجهم في المناشط المنتجة من أجل إشعارهم بأنهم جزء من الحياة الاقتصادية في المجتمع، وذلك بعد تدريبهم وتأهيلهم لمنحهم الخبرة والتجربة في العمل الذي يتناسب مع قدراتهم وقابلتيهم. وعن هذا الطريق يتبلور شعور ذاتي عندهم يربطهم بمجتمعهم ويجعلهم ينظرون إلى ذواتهم على أنهم مواطنون قادرون على خدمة اقتصاد بلدهم، فضلاً عن أن نظرة الناس إليهم سوف تكون محترمة فيثمنون عملهم ويشعرونهم بأنهم لا يمثلون عبئاً على المجتمع ولا يشكلون جماعة طفيلية تقتات على قوت المجتمع. وإذا تم استقرار النسق الاقتصادي، فإنه لا يستمر في خلق مشكلات اجتماعية جديدة على نحوٍ يزيد الفقراء فقراً. هذا الطرح الوظيفي يعكس رؤية الوظيفيين الذين يرجعون الفقر داخل المجتمع إلى عدم وجود العدالة الاجتماعية. لكن ثمة رأي لاثنين من الوظيفيين هما كنكزلي ديفز وولبرت مور اللذان يريان أن غياب العدالة الاقتصادية داخل المجتمع وظيفة إيجابية للمجتمع لأنها تحفز العديد من الناس لكي يعملوا بجدّ ومثابرة من أجل تحسين وضعهم الاقتصادي والاجتماعي ويواجهوا متطلبات الحياة الاجتماعية المتزايدة. أما غياب المحفزات وعدم خلق روح المنافسة بين الأفراد فينتج عنه عدم حصولهم على مكافآت مادية ومعنوية، فلا تتحسن أحوالهم المعيشية ولا يتجدد عملهم ولا يبدعون في مشاريعهم؛ والآن نذهب إلى رأي مغاير لما تقدم وهو تحديد الصراعيين لمعنى الفقر، الذي انطوى على: أن الفقر هو نتاج الصراع الطبقي بين الطبقات الثرية والفقيرة؛ إذ تبحث الأولى عن زيادة أرباحها من خلال استغلال طاقات الثانية (الفقيرة) وتسخيرها لخدمتها. هذا الصراع الطبقي مرده عدم تحقيق العدالة

الاقتصادية والاجتماعية، الأمر الذي يولد قيماً اجتماعية مختلفة عن قيم المجتمع؛ فتكون هناك طبقتان متناحرتان قيمياً ومترابطتان اقتصادياً غير متكيفتين إحداهما مع الأخرى بل متصارعتين من أجل خدمة مصالحهما المتضاربة؛ إذ يبحث الفقراء عن مسلك للهروب من فقرهم الناجم عن عدم تكيفهم مع وضعهم الاقتصادي – الاجتماعي المزري واللجوء إلى التسلح بالوعي السياسي من أجل مناهضة الاستغلال البشري والاقتصادي وتحقيق العدالة الاجتماعية والاقتصادية. والملاحظ على تحديد الصراعيين لمعنى الفقر أنه لم يتميز بحكم الناس على مستوى عيش معين يعدّ ما دونه فقراً بل على وجود طبقتين اجتماعيتين مختلفتين في أهدافهما ومصالحهما ودخلهما؛ فتتمسك إحداهما (الثرية) بمصالحها وأهدافها وتحاول الثانية (الفقيرة) الهروب من ظروفها الاقتصادية والاجتماعية لتحتل مواقع اقتصادية وسياسية واجتماعية أفضل. ولا أهمسة هنا لحكم الآخرين على وضعها بل إن على وضعها يتبلور من وعيها بواقعها وطموحها لتغييره. إنه تحديد اجتماعي – اقتصادي لكنه يختلف عن تحديد الوظيفيين الذين اكتفوا بالرؤية الاجتماعية فقط.

ثم هناك تحديد آخر قائم على ركيزة نفسية – اجتماعية مفادها أن المعتقدات والتوقعات الظرفية لا تملك أهدافاً طموحة تنتقل من جيل إلى آخر عن طريق التنشئة الاجتماعية المخزونة في ثقافة الفقراء الاجتماعية. ومعنى ذلك أن الفقراء يطلبون العيش الرغيد الآني والسعادة الظرفية والإرضاء المستعجل والإشباع المؤقت لرغباتهم. وليست لديهم طموحات بعيدة المدى كأن يصبح الفقير أستاذاً أو طبيباً أو مهندساً أو يخطط لمستقبل زاهر ويحدد مصادر عيشه وكيفية إنمائها وتكثيرها لأنهم قانعون بما هم عليه بسبب المؤثرات النفسية والثقافية

التي يخضعون لها، فتتبلور عندهم مواقف ومعتقدات نابعة من ثقافتهم الفقيرة يتكيفون معها ويتعاملون معها حسب الظروف، الأمر الذي يجعلهم لا يفكرون في تغيير حراكهم الاجتماعي من الاتجاه الأفقي إلى الاتجاه العمودي الصاعد إلى الأعلى، وهذا يكبح وعيهم السياسي (إن وجد) ويثبط عزيمتهم في تغيير وضعهم الاقتصادي والاجتماعي. إنه فخ أو مصيدة يقع فيها الفقير من يوم ميلاده لحين وفاته ولا يستطيع الخروج منها لكن في الإمكان إخراج الفقير من هذا الفخ عبر إتاحة فرص العمل له وإثارة انتباهه نحو أهداف طموحة وتحفيزه على تحسين محيطه الاجتماعي لكي يستطيع تحسين وضعه. بذلك يتم تخفيف حدة النزاع بين الفقراء والأغنياء أو تلطيف عدم العدالة الاجتماعية وانتشال الفقير من قدر الفقر.

بعد أن اطلعنا على الرؤى المتباينة في تحديد مفهوم الفقر الذي انطلق من زوايا اجتماعية واقتصادية ونفسية. نستطيع الآن أن نقول إن الفقر ناتج عن ظروف المعيشة غير المتوازنة في الدخل والعمل. ومما يزيد من عدم التوازن عيش الفقراء في المدن الصناعية والحضرية التي تستقطب أصحاب رؤوس الأموال وفاقديها (العمال والكسبة) على حدّ سواء. وهذا يعني أنها (المدن الصناعية والحضرية) تضم مستويين من المعيشة متضاربين ومتعاكسين، فضلاً عن تفشي البطالة وجود الأسر الفقيرة والمتقاعدين من العمل والشباب العاطل الذي يزيد عدده على عدد الفقراء في هذه المدن. كل ذلك يجعل من مناطق سكن الفقراء أماكن لتفريخ الجرائم والانحرافات السلوكية والمشكلات الاجتماعية المستعصية والإدمان على المخدرات والمسكرات والقيام بعمليات التزوير بكافة أصنافه وتهريب السلع والبضائع وباقي المخالفات القانونية لحاجتهم الماسة للمال التي

تدفعهم لطلب أكبر قدر ممكن منه في أقصر فترة زمنية ممكنة، وذلك عن طريق السطو على البنوك أو العمليات الإجرامية المنظمة وما شاكلها.

معايير الفقر

مما لا يمكن تلافيه عند الحديث عن الفقر هو أن ننبه على المعايير الأساسية في تحديد من هو الفقير، أو ما هي مقاييس العدالة الاقتصادية. في الواقع، هناك معياران مستخدمان في هذا الموضوع هما: (الدخل) و (الثروة). ويشير الأول إلى كمية المال التي يحصل عليها الفرد من عمله سنوياً (أي أجرته اليومية مضروبة في عدد أيام السنة) بينما تشير الثروة إلى مجموع ما يملكه الفرد من عقار وممتلكات شخصية وأسهم وسندات ونقد. لكن دقة المعلومات عن دخل الفرد هي أوضح من دقة المعلومات عن مجموع ثروة الفرد بسبب معرفة الدولة لمداخيل الأفراد أكثر من ثرواتهم، لأن الأخيرة مبعثرة وتمثل مدخرات شخصية يصعب على الدولة معرفتها وحصرها ولأن الدولة لا تسجل ثروات أبنائها ولا تعلنها للرأي العام. ومن الطبيعي أن يتصل توزيع الدخل والثروة بالغني والفقير ومستوى العيش وموقف الغني من الفقير وبالعكس. لا بل إنه يتصل حتى بموقف كل فئة تجاه ذاتها. فالفقراء يفتقرون إلى الحرية الشخصية والاستقلال الذاتي ويعيشون وسط بيئة إجرامية وجيرة بائسة ويواجهون مغريات الحياة المتنوعة التي يرغبون في اقتنائها لكنهم غير قادرين على الحصول عليها إلا نادراً لأن فرص الحصول عليها عندهم ضئيلة. بينما الغني يملك الثروة فتمنحه الحرية والنفوذ والسلطة الاجتماعية والقدرة على توجيه حياته الخاصة. فالغني يستطيع أن يختار ويحصل على الأشياء

التي تفرحه وتجلب له المسرة ويدفع ثمنها من ثروته، وهذا غير متوفر عند الفقراء. ويحصل أطفال الأغنياء على أفضل الأشياء وأغلاها، كما يحصل الغني على أفضل الضمانات لكي يبقى محافظاً على مستواه المعيشي واعتباره الاجتماعي. ومثل هذا غير وارد عند أطفال الفقراء، وإذا حصل بعض الشيء فيكون ذلك بشق الأنفس وبكلفة عالية. ويزداد البؤس في المجتمعات المادية، إذ يحكم الناس على الأفراد من خلال ما يملكونه من ماديات، وهنا يحكم على الفقير بالبؤس المزمن الميؤوس من تغييره.

لكن على الرغم من استخدام الدخل والثروة في قياس غنى الناس وفقرهم، فهما يستخدمان لقياس نوعين من معايير الفقر هما: المعيار المطلق، والمعيار النسبي؛ وينبني المعيار الأخير (النسبي) على الدخل الواطئ والثروة القليلة. فالفرد لديه دخل مالي واطئ وثروة قليلة يستطيع أن يعيش بهما على الكفاف. أما المعيار المطلق فهو يقيس نقص ضروريات الحياة كقاعدة أساسية للتعبير عن خط الفقر أو حدوده الدنيا. والمشكلة هنا هي: كيف يحدد خط الفقر، وما هو الحد الأدنى لمداخيل الفقراء الذين يعيشون ضمن حدوده؟ فمثلاً في كندا، تستخدم حصة الدخل المصروفة على الطعام والمسكن والملبس مقياساً للفقر عندهم، بينما استخدمت الولايات المتحدة الأمريكية عام 1963 دخل الأسرة المكونة من فردين أو أكثر- الذي كان آنذاك أقل من (3000) دولار- حدّاً للفقر. أضف إلى ذلك أنّ ازدياد أسعار السلع والمسكن والطعام بشكل مضطرد سنوياً بينما يكون الدخل ثابتاً يزيد بدوره من فقر الفقراء ويكثف بؤسهم.

صفات الفقر العامة

كما ذكرنا آنفاً، فإنه على الرغم من تباين الرؤى في تحديد الفقر، فإنّ هناك صفات عامة تربط فيما بينها، وهي:

1- دخل اقتصادي واطئ.

2- ضعف في التغذية.

3- مستوى تعليمي رديء.

4- السكن في مساكن حقيرة ورديئة، مع وجود تعصب ضد السكن في مناطق حضرية جديدة.

5- السكن في مجتمع محلي أو منطقة سكنية موبوءة بالجرائم والانحرافات السلوكية.

6- كثرة أعداد الطلبة في المدارس وضعف مستوى المعلمين وقلة الدوافع التعليمية عند الطلبة الأمر الذي يجعل طموحهم التعليمي ضعيفاً.

7- معدل عالٍ للبطالة.

8- انعدام الإسهام في المناشط المجتمعية المنتجة أو المثمرة.

9- عدم التفكير في المستقبل لأنه يشبه الحاضر السيئ.

10- عدم ثقة المؤسسات المالية (مصارف وشركات) بالتعامل مع الفقراء، وذلك لضعف مواردهم المالية.

11- سيادة القانون العرفي في الحياة اليومية أكثر من القانون الرسمي المؤسسي.

12- ضعف علاقة الأم بأبنائها.

13- اتسام بناء الأسرة الفقيرة بأن الزوجة تكون هي رب الأسرة.

14- كون معظم الفقراء من أقليات المجتمع الإثنية.

15- العمل في الأعمال الخطرة والقذرة.

16- العيش في المدن الحضرية والصناعية.

هذه الصفات نجدها تنطبق على معظم الفقراء في المجتمعات الحضرية والصناعية دون تخصص دولة معينة أو نظام سياسي أو اقتصادي معين، بل هي عامة وشاملة ولا تخضع للتفسير أو التحليل الاجتماعي وحده بل يتوجب أيضاً إخضاعها للتحليل الاقتصادي والنفسي إلى جانب التحليل الاجتماعي لأنها نابعة من رحم الفقر (إن جاز التعبير) دون التكهن بنوع الوليد وساعة ميلاده. بمعنى آخر، فإن هذه الصفات لا تخضع لتحديد جنسية الفقراء أو هويتهم أو عمرهم الزمني. ولا يهمّ إذا كانت الأسر الفقيرة من المعمرين أو العاطلين عن العمل أو من المهاجرين أو من الأسر المفككة. إنها صفات عامة تعطي الصورة الواسعة للفقراء في المجتمع الإنساني.

أصناف الفقراء

نتناول الآن تصنيف الفقراء حسب ما جاء به رايت ميلز الذي استند على دعامتين أساسيتين هما: الضمان الاقتصادي ودرجة تنظيم استقرار الأسرة.

1- **الفقير المستتر**: أي الذي يملك دخلاً واطئاً لكنه يتمتع بمشاعر متوازنة وحياة اجتماعية منتظمة بسبب انسجام أفراد أسرته ويتمتع أبناؤه بمستوى تعليمي لا بأس به ويعمل في أعمال متوسطة المهارة.

2- **الفقير المتوتر**: وهو الذي يتمتع بدخل ثابت لكن حياته الأسرية مضطربة بسبب المشكلات المستمرة بينه وبين زوجته أو بينه وبين أبنائه بسبب إدمانه على المسكرات أو المخدرات أو قساوته في علاقته مع زوجته وأبنائه.

3- **الفقير مزدوج الاضطراب**: أي الذي يعاني من اضطراب في دخله على الرغم من قلته إضافة إلى فقدان أحد الوالدين أو كليهما الأمر الذي يجعل بؤسه المعاشي والاقتصادي صعباً جداً.

4- **الفقير المكافح**: وهو الذي يملك دخلاً واطئاً ويعمل جاهداً على تحسين معيشته، وفي الوقت ذاته يعيش في وسط أسرة متكيفة مع دخلها المتدني ومحيطها الاجتماعي الفقير.

في نظر رايت ميلز؛ فإن الفقير هو ضحية التحيز الاجتماعي السائد في مجتمعه الذي دفعه لأن يعمل في عمل مفروض عليه ويعيش في مسكن سيء

الشروط الصحية وفي حي موبوء (أي مرتع للانحراف السلوكي والجريمة). إنه ضحية لأنه لا يعرف حقوقه ويجهل القانون في الوقت ذاته.

لننتقل الآن إلى موضوع آخر من مواضيع الحديث عن الفقر وهو (دائرة الفقر) التي تعبر عن حالة متشائمة للفقراء وتصويرهم على أنهم في مصيدة أو شرك لا يستطيعون الفرار أو الخلاص منه، كما تلغي قدراتهم الفكرية والعقلية التي ربما تساعدهم في الخروج من مأزق الحياة. فهي ترفض فكرة الفقر المؤقت المرتبط بأزمة اقتصادية أو اجتماعية معينة ولا تؤمن بصيرورة التغير الاجتماعي (المتدرج أو المفاجئ) وتغير موازين القوى الاجتماعية، بل تنجذب نحو الفقر المزمن الذي لا مفر منه؛ إذ تضع الفقير في دوامة الفقر التي لا ينجو منها بل تلفّ حتى أبناءه وأحفاده. وهذا حكم مسبق قاسٍ وانغلاق في التفكير والتحليل. لكننا نعرضها هنا لأنها تعطي أحد تصورات بعض علماء الاجتماع للفقر الذي لا يخلو من فائدة، ويكمن توضيحها كما في الشكل التالي:

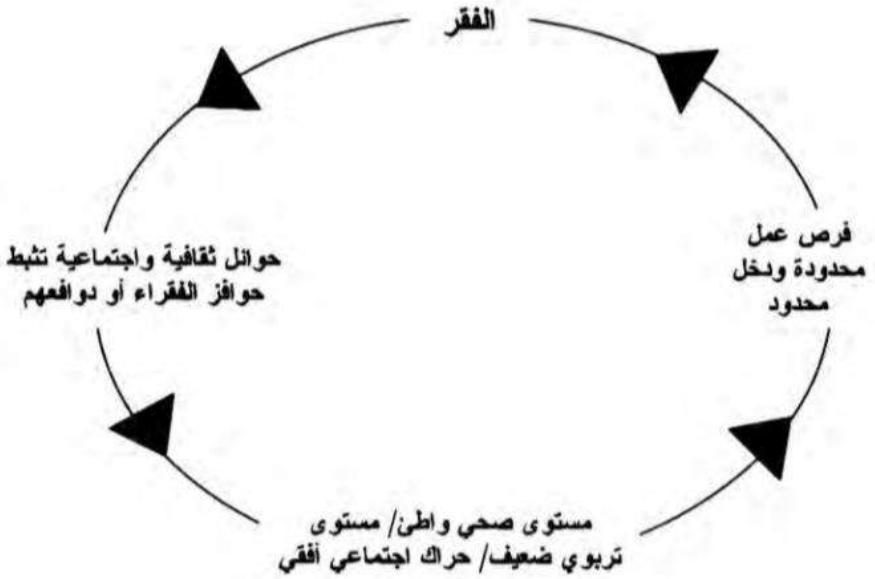

تصورات بعض علماء الاجتماع للفقر.

يبين الشكل حالة الأفراد الذين يتمتعون بدخل مالي محدود والأفراد الذين لا يجدون عملاً بسبب قلة فرص العمل المتاحة لأصحاب الخبرة الأولية والبسيطة. مثل هؤلاء الأفراد يعيشون في مستوى عيش فقير. أضف إلى ذلك أن استمرار هذه الحالة يجعل الدوافع للعمل مثبطة، فضلاً عن وجود منافسة مع أصحاب المهارات الفنية المتقدمة أو أولئك الذين يمثلون أغلبية المجتمع مع عدم حصول الفقراء على القبول الاجتماعي لأنهم في أسفل السلم الاجتماعي. مثل هذه الحوائل الثقافية والاجتماعية لا تجعل حراكهم الاجتماعي على السلم المهني والاجتماعي عمودياً؛

لأن الفرد من هؤلاء غير حاصل على مستوى تعليمي متقدم ولأن مهارته المهنية أولية وصحته ضعيفة لا تسمح له بمواصلة العمل من أجل الخروج من مصيدة الفقر. ولما كانت فرص العمل قليلة ومحدودة، فإنه يبقى يعيش على دخل مالي محدود جداً ويصبح بذلك فقيراً مزمناً. وهذه الوضعية المزرية لا تساعد أبناء الفقير في أن يعيشوا في مستوى تعليمي وصحي أفضل من والديهم إن لم يكن أسوأ منهم؛ فلا أمل لهم بالخروج من حالة الفقر. فالفقراء يولدون في أسر فقيرة وينشأون على قيم ثقافة الفقراء ويترعرعون في بيئة بائسة ثم يموتون دون أن يستطيعوا الهروب من فقرهم. ومشكلة هؤلاء الفقراء في نظر أصحاب (دائرة الفقر) هي أنهم لم يشاركوا في المناشط السياسية لأنهم فقراء أو لأنهم يمثلون أقلية إثنية في المجتمع، ولم يحتلوا مواقع عالية على السلم الاجتماعي، وليس لهم قرار في حياتهم الاجتماعية لأنهم مستلبون من قبل الأقلية في السلطة الحاكمة. وإن من الجائز أن تكون هذه الظروف عاملاً في انتمائهم إلى تنظيمات سياسية تدافع عن حقوقهم الإنسانية وتضغط على أصحاب القرار لتحسين وضعهم الاجتماعي والاقتصادي.

إذا قبلنا هذا الافتراض فإننا نجد أن رؤساء التنظيمات السياسية غالباً ما يستخدمون الفقراء موضوعاً للدعاية السياسية، حيث يتم استخدام أصواتهم في الانتخابات لصالح قادة التنظيمات السياسية الذين سرعان ما يتخلون بعد فوزهم في الانتخابات عن وعودهم وشعاراتهم التي رفعوها في الدفاع عن الفقراء وتحسين أوضاعهم. وبذلك يتحول الفقراء إلى مجرد أرقام لصالح المرشح النيابي أو السياسي ولا يحصلون على المكاسب التي وعدوا بها من قبل ذلك المرشح.

مواقف اجتماعية تجاه الفقر

هناك موقفان متناقضان تجاه الفقر، الأول مادي والثاني قيمي. **الموقف الأول** ينبع من العقيدة الفردانية السائدة في المجتمعات الرأسمالية، وبخاصة في المجتمع الأمريكي. ويمكن تلخيص هذه العقيدة بالنقاط الآتية:

1- لما كانت فرص العمل متعددة ومتاحة لكل فرد قادر على المنافسة، فإنه يجب على كل فرد أن يعمل بجد ومثابرة من أجل أن ينجح في منافسة الآخرين.

2- هؤلاء الذين عملوا بجد ومثابرة يجب مكافئتهم بمنحهم الثروة والملكية والاعتبار والنفوذ الاجتماعي علاوة على إنجاحهم.

3- وإن الذين فشلوا في منافسة الآخرين فإن سبب فشلهم يعود إلى الفشل الفردي وليس إلى الفشل الاقتصادي.

4- وبناء على ما سبق، يصبح الفرد الذي ثابر في عمله ونجح غنياً ويصبح الذي فشل فقيراً.

مثل هذه الآراء الفردانية ما زالت سائدة في المجتمع الأمريكي؛ إذ يلوم الغني الفقير بتهمة كونه كسولاً غير قادر على منافسة الآخرين من أجل تحسين وضعه المعاشي والاقتصادي، ولا يلوم الحكومة الأمريكية على عدم وضعها برنامجاً لإيجاد عمل للفقراء بدل أن تقدم لهم مساعدات غذائية وصحية وتشجعهم

على القعود عن العمل وكسب قوتهم وتجعل منهم عناصر متواكلة أو معتمدة على مساعدات الحكومة.

الموقف الثاني: يعبر عن القيم التقاليدية السائدة في المجتمعات الريفية والتقاليدية إذ يعيش الفقراء على المساعدات الأهلية كالصدقات والحسنات من أغنياء المجتمع المحلي ومن الأقارب وأفراد الأسرة الممتدة إذ يتوجب عليهم مساعدة الفقراء من أبناء أسرتهم الكبيرة لذلك لا تظهر مشكلة الفقر بشكلها الحاد أو القاسي. أنه موقف يعبر عن الالتزام القيمي والقرابي في هذه المجتمعات ولا ينظر إلى الفقراء على أنهم كسالى أو ليس لهم القابلية على التنافس الحر من أجل الحصول على عمل يعيش من ورائه بسبب التكافل الاجتماعي السائد في المجتمع المبني على القيم التقاليدية وضعف القيم المادية في المجتمع.

أسباب الفقر

لا يمكن حصر أسباب الفقر بشكل دقيق، لكن بالإمكان تحديد أسبابه بشكل عام، وبخاصة في المجتمعات المتحضرة والصناعية، وذلك بسبب بروزها للعيان والدراسات التي غطتها وشملتها. فالسبب الرئيسي للفقر في تلك المجتمعات هو البطالة التي يعاني منها العاطلون عن العمل الذين انقطع مصدر رزقهم وعاشوا في فقر. لكن البطالة لا تمثل شكلاً واحداً، بل هناك (البطالة الدورية) التي تحدث بسبب الكوارث الطبيعية أو الاقتصادية التي تسبب عدم استقرار دخل الفرد الذي يُراوح بين العمل والانقطاع عنه مما يسبب اضطراباً في دخله. ومع استمرار ارتفاع أثمان السلع ومستوى المعيشة فإنه يقع في شرك الفقر. وهناك

العاطلون عن العمل بسبب الأمراض الجسدية المزمنة مثل المعوق الذي فقد أحد أطراف جسمه أو المصاب بأحد الأمراض العصبية. وهناك العاطلون عن العمل بسبب الشيخوخة (تقدم السن) أو التقاعد أو الاثنين معاً. وهناك عاطلون عن العمل بسبب الوهن الأسري؛ إذ يكون رب الأسرة عاطلاً عن العمل بسبب انشغاله بمشكلات الأسرة المزمنة فيتعطل عمله. وأخيراً هناك العاطلون عن العمل بسبب صغر السن الذي يحرمهم من الدخول إلى سوق العمل مثل الطلبة والمتزوجين الذين تزوجوا مبكراً والأفراد المستقلين عن أسرهم، أي الذين تركوا أسرهم لكي يعيشوا من عرق جبينهم فاستقلوا اقتصادياً.

الحياة العامة للأسر الفقيرة

في الأسرة الفقيرة تكون المرأة المركز الحيوي لها؛ إذ تتحمل تربية الأبناء ومسؤولية المنزل والعمل خارج البيت من أجل الحصول على لقمة العيش؛ فليس لها الوقت للجلوس عائلياً مع أبنائها في أثناء وقت الفراغ والاستمتاع بجو عائلي هادئ، بل غالباً ما تبرز الشجارات والمشكلات المالية والعلائقية بسبب التوتر العصبي الناتج عن الحرمان الاقتصادي وسوء ظروف العمل والضغوط الاجتماعية الأخرى. وتزداد الحالة بؤساً عندما يكون الزوج عاطلاً عن العمل فتبقى الزوجة المصدر الأساسي للرزق. وتحت هذا الظرف تضعف مسؤولية الزوج داخل الأسرة وفي الوقت ذاته يقل احترام أبنائه له بسبب جلوسه الدائم في المنزل وخلق مشاكل لهم، ويبدأ بالشعور بأنه بات لا حول له ولا قوة في أسرته الأمر الذي يدفعه لأن يتصرف بأسلوب عنيف مع زوجته وأبنائه فيضطهدهم

نفسياً ويسيء معاملة الابن بالذات بشكل مستمر مما يخلق الشعور لدى الأبن بأنه غريب في أسرته ولا حاجة لاستمرار بقائه معها فيلجأ (الابن) إلى الشارع أو الزقاق ليحمي نفسه فيه من والده أو ليهرب من اضطهاد والده. وهنا يخضع لثقافة الشارع ويكتسب مؤثراتها فيتحد سلوكه وتربيته الأسرية مع الزقاقية فتغيب الضوابط الخلقية والأدبية، فيصبح الأبن ضحية سوء معاملة الأب ويغدو (كبش الفداء) في أسرته. وقد يحصل للبنت انحرافات سلوكية منها أنها قد تصبح أماً غير شرعية. ولما كانت الأسرة الفقيرة تعيش في منطقة تعج بالحانات والفنادق الرخيصة، فذلك من شأنه أن يطبع حياة ذكور الأسرة الفقيرة بطباع منحرفة وغير قويمة. فالرجال (الأب أو الابن) يتسكعون بين حانات المنطقة يشربون الخمر بشكل مستمر، وتكون هذه الحانات أماكن اجتماعاتهم وسمرهم، ويلعبون القمار على ناصية الطريق وفي أثناء لعبهم يشربون الخمر من زجاجة واحدة (من فمها)؛ إذ تنتقل من فم إلى آخر. هذا العالم المعزول عن العالم الخارجي يكون أفراده متماثلين في سلوكهم وتفكيرهم وهمومهم، والصفة البارزة فيهم أنهم يخشون الظهور أمام الناس الذين هم من خارج مجتمعهم المحلي ويهربون من مواجهتهم. هذا فضلاً عن عدم استقرار الفقير في عمل واحد؛ إذ يتنقل من عمل إلى آخر، ليس للأحسن بل إلى مستوى العمل السابق نفسه، وهو غير راغب في الاستقرار في عمل واحد بسبب تعارض ذلك مع وقت شربه ولهوه في منطقة الفقر، ومع استمرار هذه الحالة اليومية الرتيبة تصبح فيما بعد نمط عيشه الدائم.

إن الفقر مشكلة اجتماعية في كافة المجتمعات الإنسانية، تفاقمت مع تطور الحياة التكنولوجية والحضرية؛ إذ عطلت العديد من العمال غير المهرة عن العمل، وأقعدت العديد من الأفراد عن العمل بسبب تقاعدهم أو عمرهم المتقدم

(الشيخوخة) أو الاثنين معاً، إضافة إلى تعطل آخرين بسبب العمر المبكر الذي لا يسمح به سوق العمل للأحداث أو بعض الشباب. ولا تقتصر عواقب هذا الوضع على فئة عمرية أو مهنية بعينها، بل تمتد آثاره إلى الأسرة فيتصدع بناؤها الاجتماعي وينحرف بعض أبنائها وتتطبع حياتها بأنماط سلوكية منحرفة، وبخاصة عندما تعيش في منطقة سكنية رديئة صحياً ومزدحمة بشرياً ومعزولة اجتماعياً ومتخلفة ثقافياً، حيث تصبح مكاناً حاضناً لتفريخ شتى أنواع الإجرام والانحرافات السلوكية الفردية والمنظمة وهذا بدوره يبعد أفراد تلك الأسر عن الشعور بالمسؤولية والوعي السياسي والاتصال بالعالم الثقافي فيصبحون مغتربين في مجتمعهم ومستلبين من قبل السياسيين (المرشحين لمجالس البلديات والنواب...) والتجار المستغلين وأرباب العمل الجشعين. وعندما يشعرون بالبون الشاسع بينهم وبين الفئات الاجتماعية الأخرى ينزعون إلى الانتقام منها بأساليب مخالفة للقانون (كالإجرام) للحصول على الأشياء التي حرموا منها أو التي لم يستطيعوا الحصول عليها بعرق جبينهم.

أطفال الفقر

يقول الدكتور محمد الرميحي: لم يترك الفقر بصمته على أحدٍ كما تركها على أطفال هذا العالم الذي نعيش فيه. فمع الأطفال يصبح الفقر أشد وضوحاً وأكثر مأساوية، وفي العديد من دول العالم هناك قوانين تمنع عمل الأطفال وتلزم ذويهم بإرسالهم إلى المدارس. ولكن هناك أكثر من (80) مليون طفل – معظمهم من الدول الفقيرة – تتراوح أعمارهم بين الثامنة والخامسة عشرة يتوجهون كل

صباح إلى أعمال خطرة لا تتناسب مع خبرتهم ولا مع سنوات عمرهم. هذا الرقم هو من تقديرات منظمة العمل الدولية، ولكن الأرقام الحقيقية العالمية هي أكبر من ذلك بكثير. والأعمال التي يقوم بها هؤلاء الأطفال لا يمكن أن يتصورها بشر؛ ففي تايلند يمكن أن تباع أي طفلة من سكان الجبال بما لا يزيد على (3) آلاف بات (حوالي 150 دولاراً) كي تمارس الدعارة في أروقة المدينة وفي بيوتها السرية لمدة سنوات طويلة حتى تسدد هذا الدين الذي يبدو أنه لا يسدد أبداً. وهي لا تذهب مع الزبائن فقط، بل تضرب وتهان بشكل مستمر حتى تتعلم الطاعة وقبول أي شيء. وفي الهند يعمل الأطفال في مصانع لصناعة الطوب قرب مدينة دلهي دون أي أجر؛ فهم يعملون فقط في سبيل وجبة من الطعام ومأوى سيء، وهم عرضة باستمرار لتكسر العظام وتشوه العمود الفقري. وهم بهذه المهنة أسعد حظاً من رفاق لهم يبلغ عددهم حوالي (45) ألف طفل هندي يعملون في تغليف المفرقعات بحوالي 70 سنتاً كأجر يومي، بينما يربح أرباب العمل حوالي 35 مليون دولار من هذه الصناعة ولا يدفعون أي تعويض عن حوادث العمل. وفي أمريكا اللاتينية يحصد الأطفال محاصيل الحقول المرشوشة بالمبيدات وينظفون الأرض من الجرذان الميتة. وفي كولومبيا يحشر الأطفال في أضيق مناجم الفحم الحجري. ويعمل أطفال البرازيل في صناعة الزجاج حيث تبلغ درجة الحرارة 1500 درجة مئوية ويستنشقون أبخرة السليكون والزرنيخ السامة بشكل يومي. ويصاب أطفال في مصر بتشوهات في العمود الفقري نتيجة عملهم في صناعة الملابس وهم مع ذلك أسعد حظاً من الذين يعملون في محاجر الجير حيث تتكلس رئاتهم الصغيرة في وقت مبكر. وما زال الآباء في باكستان يقومون بتشويه أولادهم

بحيث يمكنهم العمل كشحاذين، أما في إفريقية فهم يفضلون بيعهم كعبيد للعمل كل الوقت وطوال العمر.

وبرغم هذه الصورة المفزعة وتنبيه العديد من المنظمات الإنسانية عليها، فلا مجال للتفاؤل. ففي معظم الدول الفقيرة تعتمد العائلات على أطفالها لتأمين معيشتها، وفي الريف يذهب الأطفال إلى العمل في الحقول حالما يستطيعون المشي على أقدامهم، ولا تتوقف الهجرة من الريف إلى المدن لتضيف مزيداً من التعطل والحاجة إلى التكسب بأي أجر ووفق أي ظرف. وفي مثل هذه الحالات يعمل الأطفال قبل أن يعمل آباؤهم لأنهم يقومون بنفس العمل ويتقاضون ربع الأجر الذي يتقاضاه البالغ تقريباً. والأطفال يخافون ويخضعون لتهديد المشرفين ولا يمكنهم التجمع أو الاحتجاج لدى السلطات الرسمية، وليس هناك نقابة تدافع عنهم عندما يرهقون بالعمل أو يتقاضون أجوراً زهيدة، وقليل منهم يعرفون حقوقهم القانونية أو يملكون القدرة على الاستفهام حول ماهية العمل والأجر، وأغلبهم شاكرون لمجرد أنهم يعملون ويجدون الفرصة لتناول وجبة يومية.

إنها عودة أخرى لزمن الرق الذي جعله العالم المعاصر أكثر بشاعة؛ ففي آسيا وجزر المحيط الهادئ يعمل الأولاد لساعات تتجاوز كل المقررات الرسمية ثم ينامون في الليل على بلاط المصنع. وفي الهند يكوى الأطفال الصغار بحديد حام إذا أخلوا بالتعليمات. وفي تايلاند يصب الحامض الحارق على وجوه بنات الهوى المراهقات القاصرات لتأديبهن. وهناك من يرى أن كل ما يحدث لهؤلاء الأطفال هو أفضل بكثير من جلوسهم جياعاً أو تجوالهم بلا عمل.

وقد تنبهت منظمة الصحة العالمية إلى ظاهرة معاصرة هي الاهتمام المتزايد للأسرة العصرية بتربية الكلاب والقطط. ونورد هنا نداء المنظمة العالمية الذي نشر في مجلة الأسبوع العربي التي تصدر في باريس في عددها الصادر في تشرين الأول عام 1997. أطلقت منظمة الصحة العالمية نداءها التحذيري من وجود (250) مليوناً من الكلاب والهررة في العالم تعيش وتنمو في أحضان العائلات، وخصوصاً الأطفال، وتتسبب بأمراض قاتلة عدة قضت خلال عام 1997 على نحو (150) ألف شخص معظمهم من الأطفال الذين تتراوح أعمارهم بين 5 سنوات و 12 سنة. وقد أنفق أكثر من (42) مليار دولار في العام الماضي (1996) على تغذية وتطبيب وتلقيح هذا العدد الهائل من الحيوانات التي تتسابق العائلات الميسورة على اقتنائها في أوروبا والولايات المتحدة والصين وآسيا والشرق الأوسط غير مدركة للمخاطر الكبرى الناجمة عن وجودها داخل المنزل وبين أفراد العائلة.

مشكلة الانتحار

Suicide

تعريف الانتحار وطبيعته

من الجوانب الجديرة بالاهتمام عند دراسة الانتحار، تحديد مفهومه. فقد اتجه الباحثين إلى وضع تعريف لانتحار من خلال تأكيدهم على عنصر المعرفة وإدراك النتيجة الناشئة من فعل يؤدي إلى الموت. عرف دور كايم Durkheim عام 1887 الانتحار بأنه «كل حالات الموت التي تنتج بصورة مباشرة أو غير مباشرة عن فعل إيجابي أو سلبي يقوم به الفرد وهو يعرف أن هذا الفعل يصل به إلى الموت». (Magili, 1998)

وقد اقتصر بعض البحثين على المعنى اللغوي في تعريفهم للانتحار، حيث عرفه (مكرم سمعان، 1961) بأنه «كل فعل أو أفعال يقوم بها صاحبها لقتل نفسه بنفسه وقد تم له ذلك وانتهت حياته نتيجة هذه الأفعال». وكذلك عرفه (إبراهيم مدكور، 1975) بأنه «قتل الإنسان لنفسه».

كما ذهب بعض الباحثين في تعريفهم للانتحار إلى التمييز بين نوعين من الانتحار هما: الانتحار الحقيقي – أي الموت الجسدي – والانتحار النفسي. فقد عرفه (وليم الخولي، 1976) بأنه «قتل الإنسان لنفسه عمداً» كما عرف نوعاً آخر يسمى الانتحار النفسي Psychic Suicide، ويقصد به «نوع من الانتحار غير

الصريح حيث يزهد البعض بالحياة تماماً ويبغضونها، وتدفعهم عوامل اليأس إلى تدمير أنفسهم فيصابون بحالات مرضية».

وبنظرة فاحصة لمجموعة التعريفات السابقة، نجد أنها تشير إلى أن الانتحار فعل أو حدث منفرد، إلا أن بيك وآخرين (Beck et al., 1979)، رفضوا ذلك، وأشاروا إلى أن الانتحار ليس حدثاً منعزلاً، بل هو عملية معقدة وبينوا أن السلوك الانتحاري يمكن تصوره باعتباره واقعاً على متصل لقوة كامنة تشمل تصور الانتحار، ثم التأملات الانتحارية، تليها محاولة الانتحار، وأخيراً إكمال هذه المحاولة الانتحارية.

ويتفق بونر و(ريتش) (Bouner and Rich, 1987) مع ما أشار إليه بيك وآخرون (1979) في أن السلوك الانتحاري عملية دينامية معقدة بدلاً من كونه حدثاً منعزلاً ثابتاً. فقد عرّفا السلوك الانتحاري بأنه «عملية مركبة من مراحل مختلفة تبدأ بتصور الانتحار الكامن، وتتقدم خلال مراحل من تأمل الانتحار النشط، ثم التخطيط للانتحار النشط، وفي النهاية تتراكم محاولات انتحار نشطة لدى الفرد. وقد يتذبذب مركز الفرد في هذه العملة وفقاً لتأثير العمليات البيولوجية والنفسية الاجتماعية».

معدلات الانتشار الانتحار

إن الانتحار ظاهرة واسعة الانتشار بين المراهقين والراشدين. فالاتجاه المرضي لزيادة معدلات الانتحار بالنسبة للشباب تم تسجيله على نحو جيد على مر السنوات القليلة الماضية. واتضح أن معدل الانتحار بين أولئك الذين يقعون في

المرحلة العمرية من 15 إلى 24 سنة قد تضاعفت ثلاث مرات تقريباً في العشرين سنة الأخيرة.

وقد أشار ديفز (Davis, 1985) إلى أن معدل الانتحار الكامل لدى المراهقين والشباب ذوي الأعمار من 15 – 24 سنة قد زاد إلى ما يقرب من 300% على مدى العقود الثلاثة الماضية.

وفي مسح قام به رود (Rudd, 1989) على عينة من طلاب الكليات (ن – 737)، توصل إلى أن أكثر من 43% من المشاركين قد شعروا بمستوى معين من تصور الانتحار خلال السنة السابقة للمسح، ومن هؤلاء وجد أن 14,9% تصرفوا بشكل ما وفقاً لذلك التصور دون القيام بمحاولات انتحار، وأن 5,5% منهم قاموا بمحاولات انتحار فعلية.

وكذلك أشار شريف وكانكل (Shreve and Knakel, 1991) إلى أن نسبة الوفيات بسبب الانتحار في أمريكا تزداد بنسبة تصل إلى 40%. كما أشار أيضاً إلى أن هذه الإحصائيات لا تشمل عدداً كبيراً من الوفيات التي لم تسجل كانتحار، لإنقاذ العائلات من العار الاجتماعي للانتحار.

وقد توصل بتري وبروك (Petrie and Brook, 1992) إلى أن 88,7% من عينة دراستهما أدخلوا المستشفى بسبب جرعة زائدة من العقاقير، وأن 4,7% حاولوا إيذاء أنفسهم، وأن 6,6% حاولوا الانتحار من خلال إطلاق الرصاص على أنفسهم أو القفز من أماكن مرتفعة أو شنق أنفسهم.

وعن الإحصائيات الحديثة في مصر، فقد أسفرت عن أن معدلات الانتحار ومحاولته ارتفعت بشكل كبير، حيث وصلت نسبتها إلى 38 لكل 100,000 في القاهرة، بينما وصلت نسبة الانتحار الفعلي إلى 4 لكل 100,000. كذلك كان 60% من محاولي الانتحار في مصر من الذين تتراوح أعمارهم من 15 إلى 24 سنة، بينما بلغت النسبة لدى طلاب الجامعة 10%. أما عن المشاعر الانتحارية لدى طلاب الجامعة فقد وصلت نسبتها إلى 12,6% (سامي عبد القوي، 1989).

وجدير بالإشارة هنا أن الأرقام والنسب السابق ذكرها لا تعتبر عن الشكل والحجم الحقيقيين للمشكلة، ذلك لأن هنالك عدم دقة في التقديرات الإحصائية عند رصدها لمحاولات الانتحار لأسباب عديدة منها أن كثيراً من حالات الانتحار لا تسجل في المستشفيات، أضف إلى ذلك أن نسبة كبيرة من حوادث الانتحار يتم تسجيلها على أنها مجرد حوادث طارئة.

مما سبق، يتضح أن أهمية المشكل لا تعني مجرد الانتشار المرتفع للظاهرة؛ ذلك لأن النظرية السيكولوجية كما يشير أحمد فائق (1984) تتضمن العملية المرضية في الفرد دون أن تضم في ثناياها كيفية انتشار هذه الظاهرة، وبالتالي فإن الانتشار بحد ذاته ليس هو المعيار الحقيقي لأهمية المشكلة. وإنما تكمن المشكلة في كيفية هذا الانتشار، خاصة إذا وجدنا أن ظاهرة الانتحار لا تنتشر بين الفئات العمرية، وإنما تتركز أكثر ما تتركز في الفئة العمرية 15–24 سنة وفي العشرينات من العمر بوجه خاص، وهي فئة الشباب بكل ما تمثله من قوة لبناء المجتمع وما تمثله أيضاً من مستقبل لهذا المجتمع.

الفروق بين الجنسين في الانتحار

اهتم بعض الدراسات بفحص الفروق بين الجنسين في تصور الانتحار. ولم تتوقف هذه الدراسات عند التوصل إلى نتيجة أن تصور الانتحار يتباين باختلاف الجنس أم لا، وإنما حاولت التعرف إن الفروق القائمة بين الجنسين في محاولات وطرق الانتحار الناجحة، كما حاولت أيضاً التعرف إلى الفروق بين الجنسين في العلاقة بين اليأس والانتحار.

فبالنسبة للفروق بين الجنسين في تصور الانتحار، تناقضت نتائج الدراسات في هذا الشأن، حيث توصل روزنتال (1981) إلى أنه بالرغم من شعور الذكور بالاكتئاب واليأس، إلا أنهم أقل رغبة من الإناث في الاعتراف بالأفكار والمشاعر الانتحارية؛ ذلك لأنهم قد يعتبرون تصور الانتحار علامة على الضعف وعدم الكفاءة في تناول شؤونهم، كما توصل أيضاً إلى أنهم بالرغم من أن الذكور قد عرفوا يأساً شديداً كالإناث، فإن درجات اليأس لم تكن مرتبطة بدرجة مرتفعة بتصور الانتحار لدى الذكور (Rosenthal, 1981)، في حين توصل رود (1989) إلى أنه بالرغم من أن الذكور أكثر محاولة للانتحار من الإناث، فإنه لا توجد فروق جوهرية بين الجنسين في تصور الانتحار.

وعن الفروق بين الجنسين في محاولات الانتحار وطرق الانتحار الناجحة يشير ريتش وزملاؤه (Rich et al., 1992) إلى أن الذكور أكثر دافعية في محاولات الانتحار الناجحة من الإناث، ذلك لأن الذكور يخافون من عدم المرغوبية

الاجتماعية، ويخافون أيضاً من أن يظهروا بمظهر الضعف باعتبارهم انتحاريين. ولهذه الأسباب فإنهم حينما يقومون بمحاولات انتحار فتكون ناجحة غالباً.

كما أشار ريتش وزملاؤه أيضاً إلى أن الذكور يستخدمون الأسلحة النارية والشنق في محاولات انتحارهم، أما الإناث فهن يتناولن العقاقير أو يقطعن الأوردة الدموية بأيديهن في محاولة انتحارهن.

أما بالنسبة للفروق بين الجنسين في قوة العلاقة بين اليأس والانتحار فقد توصل كول (Cole, 1989) إلى أن اليأس متعلق بالانتحار بشكل مباشر لدى الإناث بشكل أكبر منه لدى الذكور، وقد أرجع ذلك لوجود بعض العوامل الإدراكية التي قد تمثل حاجزاً معرفياً Cognitive Buffer بين اليأس والسلوك الانتحاري، وتشمل هذه العوامل الاعتقاد بأن أحداثاً خارجية مثل ترك المنزل والتحرر من الحكم الوالدي وإتاحة الفرصة للاستقلال، وكذلك ترك المدرسة بما تحمله من ضغوط أكاديمية، وهذه العوامل أكثر فعالية لدى الذكور منها لدى الإناث.

ولعل ما سبق يوضح لنا قلة الدراسات التي اهتمت بتناول الفروق بين الجنسين في الانتحار، كما يبدو واضحاً أن هناك تبايناً فيما أسفرت عنه النتائج في بعض الدراسات حول الفروق بين الجنسين في تصور الانتحار، الأمر الذي يعني قابلية الظاهرة وحاجتها لمزيد من البحث في المجتمعات المختلفة عامة.

عوامل المخاطرة للانتحار Risk Factors of Suicide

إن معرفة عوامل المخاطرة للانتحار تمكننا من الوقاية منه؛ وذلك أن الانتحار يعتبر السبب الرئيسي الثالث للموت بين المراهقين والراشدين في الولايات المتحدة الأمريكية ممن تتراوح أعمارهم بين 15–24 سنة (National Center for Health Statistics, 2000).

وفيما يلي نلقي الضوء على عوامل المخاطرة التي كشفت عنها الأدبيات الأجنبية:

1. العوامل البيولوجية Biological Factors

أشار التراث النظري والدراسات السابقة إلى أن الشذوذ في نظام السيروتونين مرتبط بالانتحار وكذلك بالاندفاعية والعدوان. فقد وجد مان وستوف (Man and Stoff, 1997) أن المستوى المنخفض من السيروتونين لدى محاولي الانتحار ينبئ بانتحار مكتمل في المستقبل وقرر بفيفر وزملاؤه (Pfeffer et al., 1998) أن مستوى تريبتو فإن الدوم الكلي Blood Tryptophan كان أقل بدرجة جوهرية لدى الأطفال قبل البلوغ ذوي التاريخ الحديث من محاولة الانتحار. ووجد جرينهيل وزملاؤه (Greenhill et al., 1995) علاقة جوهرية بين مقاييس السيروتونين ومحاولة الانتحار الخطيرة لدى عينة صغيرة من محاولي الانتحار المراهقين من المرضى الداخليين مع اضطراب اكتئابي عظيم.

2. المشكلات الطبنفسية Psychiatric Problems

كشفت الأدبيات الأجنبية في مجال الطب النفسي أن الغالبية العظمى من الشباب الذي أكملوا الانتحار كانت لديهم مشاكل طبنفسية هامة.

وتشمل التشخيصات الطبنفسية لديهم على اضطراب الاكتئاب العظيم والفصام وسوء استخدام الكحول والعقاقير وبعض اضطرابات الشخصية. وبالرغم من أن حوالي 90% من حالات الانتحار تتسم باضطراب نفسي تشخيصي، فإن نسبة صغيرة فقط من الأفراد المصابين بالاضطراب السيكوباثولوجي ينتحرون.

3. العوامل المعرفية Cognitive Factors

يعتبر اليأس من أهم العوامل المعرفية الكامنة وراء سلوك الانتحار. وبناء على ارتباط اليأس بالانتحار لدى الراشدين، فقد تم التسليم بوجود علاقة مماثلة بالنسبة للأطفال والمراهقين. وقد اتضح أن اليأس مرتبط بالانتحار الكامل لدى الشباب، كما ثبت أنه لا بد أن يتوسط الاكتئاب العلاقة بين اليأس والانتحار، وخاصة لدى الشباب الذكور (Shaffer et al., 1996).

وفضلاً عن ذلك، فقد وجد أن انخفاض القدرة على حل المشاكل الشخصية المتبادلة مرتبط بالانتحار لدى عينات إكلينيكية (Rotheram – Borus et al., 1990).

4. العوامل الأسرية Family Factors

تلعب العوامل الأسرية دوراً هاماً في مخاطرة الانتحار؛ فقد اتضح أن وجود تاريخ لسلوك الانتحار في الأسرة يزيد بشدة من مخاطرة الانتحار المكتملة لدى بعض أفرادها. هذا فضلاً عن أن الاضطراب السيكوباثولوجي لدى الوالدين يمكن أن يزيد من مخاطرة الانتحار لدى الأبناء. والسبب في ذلك غير معروف حتى الآن، ولكنه قد يعكس عاملاً وراثياً (Brent et al., 1994).

كما يلعب الانفصال بين الوالدين أو الطلاق دوراً هاماً في سلوك الانتحار، وخاصة إذا توسط تلك العلاقة وجود اضطراب سيكوباثولوجي لدى الوالدين (Gould and Karmer, 2001).

وقد وجدت الدراسات الإمبريقية اليت أجريت في هذا المجال أن ضحايا الانتحار كان لهم اتصال أقل تكراراً بشكل جوهري وأقل إرضاء مع أمهاتهم أو آبائهم. كما بينت أن ضحايا الانتحار كانوا أكثر احتمالاً لأن يتعرضوا لخصام بينهم وبين الوالدين ويتعرضوا لسوء الاستخدام البدني (Brent et al., 1994). وبصفة عامة، فقد لوحظ انتشار العدوان الأسري لدى الأطفال الانتحاريين المحددين في المجتمع العام (Beautrais et al., 1996).

5. أحداث الحياة الضاغطة Stressful Life Events

أشار التراث النفسي في مجال الانتحار إلى وجود ارتباط جوهري بين ضغوط الحياة كالفقد الشخصي المتبادل (مثل إنهاء علاقة مع رفيق أو رفيقة)

والمشاكل القانونية وبين الانتحار. كما تم تقرير انتشار ضغوط نوعية مختلفة تتفق وطبيعة الاضطراب الباثولوجي لدى ضحايا الانتحار. فقد تقرر الفقد الشخصي المتبادل على نحو متسق مع اضطراب سوء استخدام المواد المؤثرة نفسياً لدى ضحايا الانتحار، بينما ارتبطت المشاكل القانونية بشكل أكثر تلازماً مع اضطرابات التفكير غير المتسق Disruptive Disorders (المزيد من التفصيل، انظر: Guald and Karmer, 2001).

6. العدوى Contagion

ثمة دليل جدير بالاعتبار على أن قصص الانتحار التي تنشر في وسائل الإعلام والتي تشمل مقالات الانتحار، والتقارير الإخبارية في التلفزيون، والمسرحيات القصصية، تتبعها زيادة جوهرية في عدد محاولات الانتحار. ويتناسب حجم الزيادة مع كم النشر المعطى للقصة وبروز القصة في الجريدة (Haviton et al., 2999; Gould, 2001). وقد اتضح أن تأثير قصص الانتحار على الانتحارات المكتملة اللاحقة كان أكثر لدى المراهقين منه لدى الراشدين (Gould and Karmer, 2001).

7. العوامل البيئية الاجتماعية Socioenvironmental Factors

تتمل تلك العوامل في الوضع الاجتماعي الاقتصادي، وقد قرر جولد وزملاؤه (Gould et al., 1996) أن هناك تأثيراً عرقياً فارقياً في المقارنة بين ضحايا

الانتحار لدى الأمريكيين من أصل إفريقي أكبر بشكل جوهري من أمثالهم المجتمع العام.

كما تتمثل العوامل البيئية الاجتماعية في مشاكل المدرسة والعمل. فالغياب عن المدرسة أو العمل يفرض مخاطرة دالة للانتحار (Gould et al., 1996). فالصغار المنحرفون وغير المندمجين مع المدرسة أو مؤسسات العمل يبدو أنهم في مخاطرة جوهرية للانتحار، وقد لوحظ أن انتحارات كثيرة حدثت لدى الأطفال تحت عمر 15 سنة بعد فترة غيبا عن المدرسة، الأمر الذي يوحي بأن العزلة الاجتماعية المرتبطة بالغياب عن المدرسة قد تسهل السلوك الانتحاري (Gould and Karmer, 2001).

وكذلك تتمثل العوامل البيئية الاجتماعية في التوجه الجنسي، وحدوث المثلية الجنسية باعتبارها عامل مخاطرة للانتحار. ففي حصر لطلاب مدرسة مينسوتا العالمية اتضح أن معدل محاولات الانتحار لدى الذكور ذوي المثلية الجنسية والثنائية الجنسية أكبر – وبشكل جوهري – من معدل الانتحار لدى الذكور ذوي الغيرية الجنسية (Faulkner and Cranston, 1998).

التوجهات النظرية المفسرة للانتحار

تتعدد أسباب الانتحار. ويرجع ذلك الأمر إذا اختلاف التوجهات النظرية التي اهتمت بتفسير ظاهرة الانتحار، وأسبابها وعوامل نشأتها. وسوف نوضح التفسيرات النظرية لظاهرة الانتحار على النحو التالي:

اولاً: التفسيرات النفسية

1. تفسيرات نفسية ذات اتجاه تحليلي

ينظر المحللون النفسيون للانتحار باعتباره ظاهرة نفسية داخلية، وباعتباره راجعاً إلى اضطراب العلاقات البينشخصية. وفيما يلي التفسيرات التحليلية للانتحار:

أ. الانتحار باعتباره ظاهرة نفسية داخلية

وهنا يتم تفسير الانتحار على أساس وجود ألم نفسي لا يحتمل، ويكون هذا الألم شعورياً. فحينما يكون الموقف غير محتمل ويريد الشخص اليائس أن يخرج منه فيلجأ إلى الانتحار. وهذا ما لاحظه موراي (Murray, 1967) من أن للانتحار وظيفة ، فبه يريد الفرد أن يلغي توتراً مؤلماً له، وهو يقدم شفاء من معاناة غير محتملة (Leenaars, 1996: 224).

كما يفسر الانتحار طبقاً للتقلص المعرفي Cognitive Contraction، الذي يشير إلى الجمود في التفكير، وصعوبة التركيز، والرؤية المعتمة. فالشخص الانتحاري – من الناحية المجازية – يكون مسمماً أو مخدراً بالتقلص، ولا يبدي عن اللحظة التي تسبق موته سوى تشوشات Perturbations خاصة بصدمة أو جرح (مثل الفشل في العمل والصحة السيئة ورفض من الأفراد القريبين منه. وفي مواجهة الصدمة يصبح الحل هو التقلص المعرفي الذي يمثل أخطر أشكال العقل الانتحاري (Leenaars, 1997: 23).

كما يفسر الانتحار طبقاً للتعبيرات غير المباشرة Indirect Expressions. فالشخص الانتحاري يتسم بثنائية الوجدان، ليس بالنسبة للحب والكراهية فحسب، ولكن قد يكون هناك صراع بين البقاء والألم غير المحتمل. ويخبر الشخص الانتحاري إذلالاً، وخضوعاً، وولاءً، وطاعة، أو ضرباً بالسياط، وحتى مازوخية في بعض الأحيان، وعلاوة على ذلك لا يكون الشخص الانتحاري شاعراً سوى بجزء من العقل الانتحاري، وتكون القوى الحافزة للانتحار هي قوى لا شعورية إلى حد كبير (Leenaarns and Lester, 1996: 3).

كذلك يفسر الانتحار باعتباره راجعاً إلى ضعف الأنا Weak Ego، حيث تحدد (الأنا) باعتبارها جزء العقل الذي يتفاعل مع الحقيقة وله إحساس بالفردية. وبناء على ذلك، فقوة الأنا عامل وقائي ضد الانتحار، أما ضعف الأنا فيرتبط على نحو إيجابي مع خطورة الانتحار. فالأشخاص الانتحاريون يُبدون على نحو متكرر ضعفاً نسبياً في قدرتهم على تنمية ميول تشييدية والتغلب على صعوباتهم الشخصية، ويرجع ضعف (الأنا) إلى أحداث الحياة الجارحة (مثل: الخسارة والرفض والفشل) (Leenaars, 1997: 23).

ب. الانتحار كاضطراب في العلاقات البينشخصية

إن الشخص الانتحاري لديه مشاكل في تأسيس علاقة بينشخصية أو الإبقاء عليها فيوجد على نحو متكرر موقف بينشخصي غير محتمل (نكبة سائدة)، وبما كان النمو الإيجابي في تلك العلاقات المضطربة هو الحل الوحيد للاستمرار في الحياة، ولكن مثل هذا النمو كان يُرى باعتباره لم يحدث، فتحبط الحاجات النفسية

للإنسان، ويُقدم الفرد على الانتحار بسبب إحباط الحاجات النفسية على نحو بينشخصي (Leenaars, 1996: 223).

كما يفسر الانتحار – أيضاً – وفقاً لغرض الرفض – العدوان Rejection – Aggression Hypothesis –، حيث يعتبر الفقد Loss أمراً أساسياً في الانتحار، فالفقد غالباً ما يكون رفضاً يُخبر باعتباره هجراً. إنه إيذاء نرجسي غير محتمل، وإيذاء يؤدي إلى كراهية موجهة نحو الآخرين، ولوم للذات. وباعتباره أن الشخص الانتحاري يتسم بثنائية وجدانية عميقة، وفي نطاق تلك الثنائية، فقد يصبح الانتحار نكوصاً إلى دوافع قاتلة للذات، وقد يكون الانتحار عدواناً محجوباً (Leenaars, 1997: 23).

ووفقاً لفرض التوحد – الخروج Identification – Egression Hypothesis، فقد اقترح (فرويد) أن التوحد الشديد مع شخص مفقود أو مرفوض، أو كما وضح زيلبورج Zilboorg، التوحد مع (الحياة العملية – الحرية – الصحة) على سبيل المثال يكون حاسماً في فهم الشخص الانتحاري. ويحدد التوحد بأنه ارتباط (صلة) قام على رابطة انفعالية هامة مع شخص آخر (موضوع). وإذا لم تتحقق هذه الحاجة الانفعالية، فإن الشخص الانتحاري يخبر ألماً عميقاً (عدم الراحة) ويريد أن ينبثق؛ بمعنى أن يترك، أو يخرج، أو يغادر ليكون ميتاً (Leenaars, 1997: 23).

تفسيرات نفسية ذات اتجاه غير تحليلي

تتميز تلك التفسيرات عن التفسيرات التحليلية في أنها لا تفترض وجود مجموعة من الديناميات النفسية أو سيناريو لا شعوري شامل، ولكنها تؤكد على مظاهر نفسية معينة تبدو ضرورية لوقوع حدث الانتحار المهلك، وتتمثل تلك المظاهر في الآتي:

1. تشوش حاد Acute Perturbation؛ أي زيادة في حالة الاستياء العامة لدى الفرد.
2. عدائية مرتفعة، وزيادة في إنكار الذات، وكراهية الذات، والإحساس بالعار، والشعور بالذنب، ولوم الذات.
3. زيادة حادة وفجائية في انخفاض التركيز العقلي، وتقليل عمليات التفكير، وتضييق المحتوى العقلي، وضعف القدرة على رؤية اختيارات حيوية يمكن أن تحدث على نحو عادي للعقل.
4. فكرة التوقف والاستبصار الذي يمكن أن يضع نهاية للمعاناة بتوقف الانسياب غير المحتمل. ويفهم الانتحار في هذا السياق ليس كحركة نحو الموت (أو التوقف)، ولكن يفهم كنوع من الهروب من انفعال لا يحتمل (Motet, 1996: 886).

ثانياً: التفسيرات الاجتماعية للانتحار

إن تناول ظاهرة الانتحار باعتبارها ظاهرة نفسية بحتة يجعل المشكلة أحادية البعد، ويعزل الفرد كجهاز مغلق عن بقية المثيرات الاجتماعية التي تحيط به والتي تؤثر فيه بما قد يدفعه إلى السلوك الانتحاري كما يحدث لدى الكثيرين. وعلى هذا الأساس قام علماء الاجتماعي بتقديم تفسيرات اجتماعية لظاهرة الانتحار.

فقد ذهب إميل دور كايم (E. Durkheim, 1897) إلى أن ظاهرة الانتحار اجتماعية ترتبط أساساً بالنظام الاجتماعي وما يطرأ عليه من ظروف تغير مفاجئة، أو ما يجري على الجماعات الاجتماعية. وقد اقترح (دور كايم) أربعة أنواع للانتحار جميعها تؤكد على قوة أو ضعف علاقات الشخص أو روابطه بالمجتمع. فالانتحار الأناني Egoistic Suicide يحدث حينما تكون للفرد روابط قليلة جداً بالمجتمع ولم تحقق له مطالب الحياة. ويحدث الانتحار الإيثاري Altuistic حينما تكون للشخص روابط اجتماعية قوية جداً لدرجة أنه يضحي بنفسه من أجل الجماعة. ويحدث الانتحار اللامعياري Anormic Suicide حينما تتحطم فجأة العلاقة المعتادة بين الفرد والمجتمع، مثل وقوع صدمة أو فقد مباشر للعمل، أو فقد صديق حميم أو ثروة. ويحدث الانتحار الجبري Fatalistic Suicide من تنظيم متزايد يُفرض على الأشخاص مثل العبيد حين لا يرون بصيص أمل للحرية في المستقبل (Wierzbicki, 1998: 601).

ويشير دوجلاس Douglas – الذي اختلف مع وجهة نظر دوركايم – إلى أن المعاني الاجتماعية للانتحار تختلف بشدة، فكلما تكاملت المجموعة على نحو اجتماعي أكبر زاد اشمئزازها من الانتحار، كما يمكن أن تصبح ردود الأفعال

الاجتماعية للسلوك الانتحاري نفسها جزءاً من أسباب التصرفات ذاتها التي تسعى المجموعات لضبطها. ويعتقد ماريس Maris أن النظرية المنهجية للانتحار يجب أن تتضمن أربع فئات واسعة على الأقل من المتغيرات: تلك التي تخص الشخص، والسياق الاجتماعي، والعوامل البيولوجية، والسلطة السياسية (Through: Motet, 1996: 886).

العلاقة بين الانتحار وبعض المتغيرات النفسية

يعتبر الاكتئاب من أهم العوامل المرتبطة بالانتحار، ويُعد الاكتئاب من أكثر الشتخيصات النفسية المرتبطة بالانتحار؛ إذ إن المكتئب شخص محبط ورافض للحياة. وينتحر حوالي (15%) ممن لديهم اكتئاب شديد، وبين المنتحرين لوحظ أن (80%) منهم كانوا يعانون من الاكتئاب، كما لوحظ أن (25%) من المنتحرين كانوا مدمنين، حيث يطلق إدمان بعض المواد المثبطات لدى المرضى المكتئبين فيجعلهم يقدمون على الانتحار (محمود حمودة، 1990).

وبالرغم من أن غالبية حالات الانتحار قد لا تقع ضمن أي تصنيف مرضي معين، فإن الاضطرابات الاكتئابية، واضطرابات الهوس، والقلق، واضطرابات الذعر، وغير ذلك من الاضطرابات النفسية تكون متعلقة ببعض أشكال الانتحار. ويعتبر الاكتئاب أكثر الاضطرابات النفسية تكراراً لدى محاولي الانتحار (Leenaars, 1997: 22).

وهذا ما أشار إليه ويرزبيكي (Wierzbicki, 1998: 613) من أن محاولة الانتحار مرتبطة بمتغيرات سلوكية ونفسية معينة مثل الاكتئاب، والشعور بالوحدة

النفسية، وضغوط الحياة الشديدة، والألم أو المرض، والفقد الحديث لأي شخص أو شيء عزيز، واستخدام المخدرات والحكول.

وفي تتبع طويل المدى وجد أن (15%) من الأفراد المكتئبين يقتلون أنفسهم في النهاية، كما لوحظ أن (60%) تقريباً من حالات الانتحار ترجع إلى الاكتئاب أو الاكتئاب المصحوب بسوء استخدام الكحول (Beach, 1998: 201).

وفي إطار الدراسات الإمبريقية التي أجريت للتحقق من جوهرية العلاقة بين الانتحار والاكتئاب، أجرى ديك (Dyck, 1991: 360 – 373) دراسة بهدف التعرف إلى الاتجاهات الإيجابية والسلبية التي تكمن وراء تصور الانتحار. وطبق الباحث مقياس بيك للاكتئاب، ومقياس تصور الانتحار، ومقياس اليأس، وقائمة أسباب الحياة، على عينة قوامها 128 من طلاب الجامعة ()48 ذكراً و8 أنثى). وأسفرت النتائج عن وجود ارتباط موجب جوهري بين الاكتئاب وكل من اليأس وتصور الانتحار، بينما ارتبطت أسباب الحياة ارتباطاً سالباً جوهرياً بكل من اليأس، والاكتئاب، وتصور الانتحار.

ويبدو أنه يوجد ارتباط موجب جوهري بين الاكتئاب وكل من اليأس وتصور الانتحار. وعلاوة على تلك العلاقة القوية بين الاكتئاب والانتحار، فإن الاكتئاب يعتبر من أقوى المنبئات بالانتحار. وهذا أشارت إليه غالبية نماذج العوامل المتعددة المراجعة حيث حُدد الاكتئاب باعتباره أفضل منبئ بتصور الانتحار (Zhang, 1996: 176).

وقد أجريت عدة دراسات إمبريقية للتحقق من صحة هذا الافتراض النظري. ومن هذه الدراسات تلك الدراسة التي أجراها ليستر وعبد الخالق

(Lester and Abdel-Khalek, 1998: 280 – 283) على عينتين من طلاب الجامعة، إحداها عينة أمريكية (ن = 183)، والثانية عينة كويتية (ن = 222). وطبق الباحثان قائمة بيك للاكتئاب، ومقياس بيك لليأس، وتم سؤال الطلاب عن الأفكار الانتحارية التي راودتهم في الماضي وتراودهم في الحاضر، بالإضافة إلى استخدام بعض المقاييس الأخرى. وتوصلت الدراسة إلى نتائج عديدة تشير في مجملها إلى وجود مستوى من الأفكار الانتحارية لدى الطلاب الكويتيين أكثر منها لدى الطلاب الأمريكيين، وقد تنبأ الاكتئاب أكثر من المتغيرات الأخرى وبشكل جوهري بتصور الانتحار لدى كل من العينة الأمريكية والعينة الكويتية.

ويبدو أن الاكتئاب كمنبئ بتصور الانتحار يمكن تعميمه عبر الثقافات بالنسبة للعينات غير الإكلينيكية، وخاصة طلاب الجامعة.

كذلك تم التحقق من الافتراض النظري السابق لدى عينة من طلاب المدارس الثانوية في الدراسة التي أجراها دي مان (De Man, 1990: 105 – 114) والتي هدفت إلى فحص المتغيرات النفسية والاجتماعية المرتبطة بتصور الانتحار، حيث طبق الباحث قائمة بيك للاكتئاب، ومقياس تقدير الذات، وقائمة مسح خبرات الحياة، واستخبار المساندة الاجتماعية، على عينة قوامها (754) من طلاب المدارس الثانوية (372 ذكراً و382 أنثى). وأسفرت النتائج عن أن عزل تأثير الاكتئاب أدى إلى تضاؤل حجم الارتباط بين تصور الانتحار وكل من تقدير الذات، وأحداث الحياة، والمساندة الاجتماعية.

كما تم التحقق من هذا الافتراض النظري لدى عينة من المسجونين، وذلك من خلال الدراسة التي أجراها دير (Dear, 2000: 77 – 80) على عينة قوامها

(107) من المسجونين، طبق عليهم مقياس بيك للاكتئاب، ومقياس الاندفاعية المختلفة وظيفياً Dysfunctional Impulsivity Scale، ومقياس تصور الانتحار. وأسفرت النتائج عن وجود ارتباط موجب جوهري بين الاكتئاب وتصور الانتحار بعد عزل درجات الاندفاعية المختلفة وظيفياً، بينما جاء الارتباط غير جوهري بين الاندفاعية المختلفة وظيفياً وتصور الانتحار حينما تم عزل درجات الاكتئاب.

وإن كان الاكتئاب يعتبر أقوى منبئ بتصور الانتحار مقارنة بالمتغيرات النفسية الأخرى في الدراسات، فإنّ هذا الأمر أثار جدلاً كبيراً بين الباحث حيث لا بد أن يصاحب اليأس الاكتئاب حتى تزداد احتمالية وقوع الانتحار، وهذا ما يبدو واضحاً في الشكل التالي:

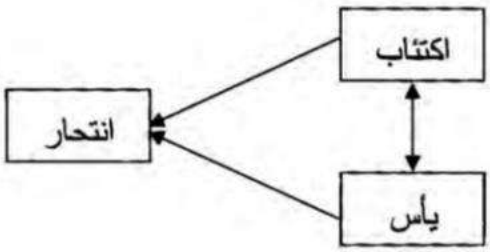

أثر التفاعل المشترك بين الاكتئاب واليأس في ازدياد احتمالية الانتحار

يتضح من الشكل أنه كلما كان اليأس ملازماً للاكتئاب، وتفاعلاً معاً، فإن هذا من شأنه أن يزيد من درجة الانتحار بشكل أكثر مقارنة بتأثير أحدهما فقط على الانتحار (Cole, 1989, 23).

مما سبق تتضح أهمية وجود متغير اليأس لدى الفرد المكتئب حتى يقدم على الانتحار. والأكثر من ذلك أنه ليس كل فرد مكتئب يمكن أن يقدم على الانتحار إلا إذا استشعر اليأس بشكل كبير. وهذا أكده التراث النفسي في مجال الانتحار حيث اتضح أن له تأثيره بالنسبة للعلاقة بين الاكتئاب ونية الانتحار، وأن اليأس أقوى تأثيراً في نية الانتحار إذا قورن بالاكتئاب (Salter and Platt, 1990).

وللتحقق إمبريقياً من الافتراض السابق، أجريت دراسة عام (1998) كان الهدف منها فحص العلاقة بين كل من الاكتئاب واليأس وتصور الانتحار. وتم تطبيق قائمة بيك للاكتئاب، ومقياس اليأس، ومقياس تصور الانتحار، على عينة قوامها (324) من طلاب الجامعة (162 ذكراً – 162 أنثى). وأسفرت النتائج عن أن درجة تصور الانتحار تزداد بفعل التأثير المشترك لكل من الاكتئاب واليأس لدى مجموعتي الذكور والإناث، وأنه عند عزل اليأس عن العلاقة بين الاكتئاب وتصور الانتحار تراجعت قيمة معامل الارتباط بشكل ملحوظ لدى مجموعة الإناث دون مجموعة الذكور، بينما لم تتغير العلاقة بين اليأس وتصور الانتحار عند عزل تأثير الاكتئاب سواء لدى مجموعة الذكور أو لدى مجموعة الإناث.

وإذا كان الدراسة السابقة تحققت من الدور الذي يلعبه اليأس في الانتحار، فإن تلك الدراسة أجريت على عينة غير إكلينيكية، وهذا الأمر يحتاج إلى

إجراء دراسة على عينات إكلينيكية حتى يكتمل وصف الدور الذي يلعبه اليأس بالإضافة للاكتئاب في الانتحار.

وهذا ما تحققت منه الدراسة التي أجراها دوري وأوفرهولستر (Dori and Overholster, 1999: 309 – 318) على عينة مكونة من ثلاث مجموعات إكلينيكية هي: (1) مجموعة من المراهقين المكتئبين (ن = 34)، (2) مجموعة المراهقين المتكئبين الذين حاولوا الانتحار مرة واحدة في حياتهم (ن = 24)، (3) مجموعة امراهقين المكتئبين الذين حاولوا الانتحار عدة مرات خلال حياتهم (ن = 34). وطبق الباحثان كلاً من مقياس تقدير الذات، ومقياس اليأس وقائمة بيك للاكتئاب. وأسفرت النتائج عن أن المجموعات الثلاث أظهرت مستويات منخفضة من تقدير الذات. كما أوضحت النتائج أن المراهقين الانتحاريين قد خبروا اكتئاباً ويأساً شديدين على نحو جوهري مقارنة بما خبره المراهقون المكتئبون غير الانتحاريين.

ويتضح من العرض السابق للدراسات التي تناولت العلاقة بين الانتحار – كعدوان مباشر موجه ضد الذات – والاكتئاب، أنها تحققت من تلك العلاقة لدى عينات كبيرة وبأدوات سيكومترية، ولكنها لم تتطرق إلى فهم تلك العلاقة من خلال فحص الديناميات النفسية التي تقف وراء تلك العلاقة لدى حالات فردية؛ فالاكتئاب – كما يرى أنصار التحليل النفسي – ما هو إلى حنق وغضب بسبب الإحباط أو خيبة الأمل في إشباع الحاجة للحب، وهو غضب يتحول بسبب ميكانيزمات الدفاع التي يقوم بها الفرد للدفاع عن الذات عند وجود أي تهديد لها، وكأن لسان حال الشخص يقول لموضوع الحب: «ما دامت لا تحبني فأنا أكرهك»،

ولكني لا أستطيع أن أصرح أو حتى أعترف بكراهيتي لك (بفعل الإحساس بالذنب والصرامة في بناء الأنا العليا)، وإذن «فإنني أنا الجدير بالكراهية، وأستحق الكراهية والعقاب سبب عيوبي، وأوجه القصور لدي» (عبد الستار إبراهيم، 1998: 97). وإذا وجهنا النظر إلى الكراهية في صورتها الفجة المدمرة، وجدنا الإنسان الكاره محطماً لغيره، وفي ظروف بعينها محطماً لنفسه، إذا لم يسعفه الحب فيسانده في تلطيف حدة الكراهية. وفي هذه الظروف يتخلق الاكتئاب في صوره المتدرجة من الاكتئاب العصابي الطفيف إلى الاكتئاب الميلانخولي الذهاني الذي قد ينتهي بالإنسان إلى الانتحار. (مصطفى زيور، 1986: 175)

وفي إطار فحص العوامل السيكودينامية التي تقف وراء الانتحار أجرى لينارس (Leenaars, 1997: 15–27) دراسة بهدف فحص تاريخ حالة فرد راشد منتحر. وكشفت الدراسة أن ذلك الراشد كان يعاني ألماً عميقاً وكان غير قادر على التوافق مع متطلبات الحياة، كما اتسم بضعف (الأنا)، وكانت علاقته البينشخصية بعائلته مضطربة.

إضافة إلى ما سبق، نجد أنه إذا كان للذات أن تتماسك، لتبقى على تكاملها في ظروف الضغط، فإن قلقاً بسيطاً معيناً خاصاً باحترام الذات الإيجابي يجب الإبقاء عليه. وحينما يفقد هذا القدر الأدنى من تقدير الذات الإيجابي أو حب الذات (النرجسية)، فإنه يلي تلك الخبرة الاستسلام للانتحار. فبدون مستوى أساسي للنرجسية، نجد أن المريض المكتئب يسحب أي اهتمام بنفسه، لدرجة تؤدي إلى حدوث نوع من الهجر الداخلي، وتترك الذات بدون مأوى من الرياح

المريرة لاحتقار الذات. وغالباً يأتي الانتحار حينما يشعر المريض بأن الحياة لا تستحق النضال من أجلها.

وقد دعم ذلك الافتراض النظري مالتسبرجر، (Maltsberger, 1997: 28 – 33) في دراسته التي أجريت بهدف التعرف إلى دور الثقافة والأنا المثلى في الانتحار. وأجريت دراسة متعمقة على حالة فرد راشد من محاولي الانتحار. واتضح وجود صراع مع زوجته التي جاءت من ثقافة مختلفة عن ثقافته، ولم تشاركه قيمة الزواجية والعائلية، وحينما تركته دُمر، ليس فقط بفقد عائلته، ولكن بهدم نظرته المثالية عن ذاته كزوج ووالد، وتبع ذلك محاولة الانتحار.

ويتضح من الدراسة السابقة أن ضغوط الحياة التي يعاني منها الراشد المنتحر أثارت لديه بعض المشاعر الاكتئابية (الهجر – الفقد) التي أدت إلى الانتحار في النهاية.

وهكذا تبزغ ضغوط الحياة كأحد المتغيرات التي إذا تفاعلت سواء مع الاكتئاب أو مع اليأس فإنها سوف تؤدي إلى الانتحار، وهذا ما أقره التراث النظري في مجال الانتحار؛ إذ إن المشاحنات Hassles وأحداث الحياة السلبية ترتبط بكل من اليأس وتصور الانتحار، ويتوسط اليأس العلاقة بين تصور الانتحار وكل من المشاحنات وأحداث الحياة السلبية. ويمكن تمثيل هذه العلاقة كما في الشكل التالي:

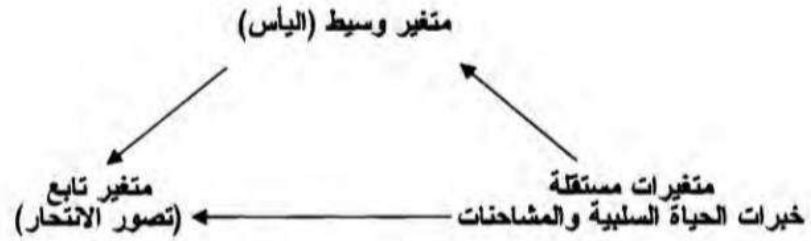

نموذج بيك لليأس

يتضح من الشكل أن كلاً من المشاحنات وخبرات الحياة السلبية (كمتغيرات مستقلة) تؤدي إلى اليأس (كمتغير وسيط) الذي ينتج عنه تصور الانتحار (كمتغير تابع) (Yang and Clum, 1994: 133).

وللتحقق من صحة هذا الافتراض النظري، أجرى يانج وكلوم (Yang and Clum, 1994: 127 – 139) دراسة على عينة قوامها (1.1) من طلاب الجامعة الآسيويين المقيمين في أمريكا (73 ذكراً و28 أنثى) تراوحت أعمارهم بين 18 – 40 سنة، بمتوسط عمري مقداره 23,4 سنة، وانحراف معياري بلغ 4,4 سنة. وطبق الباحثان كلاً من مقياس بيك لتصور الانتحار، ومقياس زونج للاكتئاب، ومقياس مسح خبرات الحياة، ومقياس المساندة الاجتماعية. وأسفرت النتائج عن وجود ارتباط موجب جوهري بين تصور الانتحار وكل من الاكتئاب واليأس. كما أوضحت النتائج مجموعة من العوامل المرضية التي تؤثر في هذه

العلاقة مثل ارتفاع مستوى الضغوط، وانخفاض المساندة الاجتماعية، وافتقاد الثقة في حل المشاكل، واليأس.

وعلى غرار الدراسة السابقة أجرى ستيوارت وآخرون (Stewart et al., 1999: 227-240) دراسة على عينة قوامها (996) من المراهقين الصينيين، طبقت عليهم قائمة بيك الصينية للاكتئاب (C BDI)، كما قومت سلسلة واسعة من الضغوط كمنبئ بمستوى التفكير الانتحاري. وأسفرت النتائج عن أن التفاعل المشترك بين مستوى الضغوط والاكتئاب قد تنبأ بالانتحار بنسبة 33% من التباين الكلي. وكان الاكتئاب أكثر تنبؤاً بتصور الانتحار لدى الذكور منه لدى الإناث، بينما كان التفاعل بين الاكتئاب والضغوط الوالدية أكثر تنبؤاً بتصور الانتحار لدى الإناث منه لدى الذكور.

ونستنتج بصفة عامة أن العلاقة بين الانتحار – كعدوان مباشر موجه ضد الذات – والاكتئاب هي علاقة معقدة تماماً. ويوحي التراث النفسي بما يتضمنه من دراسات سابقة بأن الأفراد الذين يقومون بمحاولات انتحار فاشلة – مثل أولئك الذين يكملون الانتحار – يشملون نسبة كبيرة م نالمرضى الذين يعانون من الاكتئاب أحادي القطبية وثنائي القطبية، وأن معظم الشباب ذوي الأفكار الانتحارية يعانون بشدة من أعراض الاكتئاب. وهكذا فإن الأفكار والسلوكيات الانتحارية متعلقة بشدة بالاكتئاب.

وبالرغم من قوة العلاقة بين الانتحار والاكتئاب، فإن الاكتئاب لا يؤدي دائماً إلى أفكار وأشكال انتحارية. وهذا ما أقره لوينزون وآخرون (Lewinsohn et al., 1996) من أنّ 40% من المراهقين ذوي الاكتئاب المشخص سيكاترياً لا

يقررون تفكيراً انتحارياً. ويقرر شافر وباكون (Shaffer and Bacon: 1989) أنه في كل 600 مراهق مكتئب من الذكور يوجد فرد واحد فقط يقوم بمحاولة انتحار. وقد يرجع ذلك إلى وجود متغيرات أخرى تتفاعل مع الاكتئاب لزيادة احتمال القيام بمحاولة الانتحار، ومن هذه المتغيرات: اليأس، وضغوط الحياة، وانخفاض المساندة الاجتماعية، وضعف القدرة على الحل الفعال للمشكلات.

علاوة على ما سبق، فإن متغير النوع يلعب دوراً رئيسياً في تفاعل الاكتئاب مع المتغايرات النفسية الأخرى، الذي من شأنه أن يزيد من درجة احتمالية الانتحار. فالتفاعل المشترك بين الاكتئاب وأي من اليأس أو ضغوط الحياة من شأنه أن يزيد من درجة تصور الانتحار لدى الإناث دون الذكور.

مشكلة الجنوح

مقدمة

أولى الغرب ظاهرة الجنوح اهتماماً واسعاً؛ تلك الظاهرة التي تفشت بصورة لافتة للنظر عقب الحرب العالمية الثانية نظراً لما خلفته الحرب من آثار وأضرار كان الجنوح من بين نتائجها المتعددة. وقد لخص الباحثون أسبابها في:

- سوء التغذية الذي أدى بدوره إلى زيادة الجرائم الاقتصادية من قبيل السرقات والصفقات غير المشروعة بكافة أنواعها.
- عدم الاستقرار الأسري الذي أدى إلى تخلف الحدث الجانح عن الذهاب إلى المدرسة.
- الهروب من الأسرة وما يتبعه من انحرافات عديدة.
- التشرد وتكوين عصابات من الأتراب.
- زعزعة الإيمان بالقيم الإنسانية نظراً لما يشاهده الحدث في بيئته من أحداث (جين شزال، 1963).

والجدير بالذكر أن الأطفال هم أمل كل أمة. لذا فإن دراستهم والاهتمام الجاد بهم هو عمل ضروري وليس من قبيل سد الخانة.

تعريف الجانح

لغوياً: كلمة جناح في اللغة العربية تشير إلى الإثم. وفي القرآن الكريم: لا جُناح عليكم ولا تعني هذه الكلمة لغوياً بالضرورة مخالفة القانون، ولكنها تحمل فكرة تفيد الشذوذ أو الانحراف عن مسلك الغالبية (راجع: ابن منظور).

الجانح في معجم العلوم الاجتماعية

الجنوح هو الميل إلى الانحراف أو الجريمة، وهذا المفهوم يستخدمه علماء النفس والاجتماع والتربية والإدارة وإن كانت تفسيراتهم له متباينة. غير أن العلماء يتفقون على أن الجنوح يعد خروجاً على قيم المجتمع وتقاليده.

والجنوح ظاهرة اجتماعية تختلف من بيئة إلى أخرى ومن عصر إلى آخر؛ فهناك أمور تعد إثماً في مكان ولا تعد كذلك في مكان آخر. ويقسم المشرع المصري أفعال الجنوح إلى ثلاثة أنواع هي: الجنايات والجنح والمخالفات، وهي مرتبة ترتيباً تنازلياً حسب جسامتها، لذا تختلف عقوبتها تبعاً لهذه الجسامة (معجم العلوم الاجتماعية، 1975 : 412).

التعريف الإجرائي للجانح: هو ذلك الشخص الذي يقل عمره عن 18 عاماً ويقوم بارتكاب أي نوع من أنواع الجريمة مما يدخله في باب مخالفة القانون، ومن ثم يطبق عليه القانون بغض النظر عن جنسه، سواء أكان ذكراً أم أنثى، وبغض النظر عن طبيعة الجريمة أو مخالفة القانون التي ارتكبها.

الاتجاهات المختلفة في تفسير أسباب الجنوح

شغلت الجريمة الرأي العام وما زالت لذا فإنه لا غرابة في أن نجد العديد من الاتجاهات المختلفة في تفسير السلوك الإجرامي. وتتفاوت تلك الاتجاهات بين الاتجاه البيولوجي الذي يؤكد أهمية الوراثة والغدد وطبيعة المخ في ذلك وبين الاتجاه الذي يؤكد أهمية العوامل الاجتماعية والنفسية في تفسير الجنوح وما تمور به النفس الإنسانية من اضطرابات وصراعات وعدوان قد ينفجر تجاه الآخرين في فعل أو أفعال إجرامية تخل بطبيعة المجتمع وعاداته وتقاليده.

وقبل أن نتعرض لهذه الاتجاهات، نتفق مع ما يورده سعد جلال (1986) من أن الاتجاه الحالي في دراسة الجريمة يقوم على ما يلي:

1- تعدد العوامل وتشابكها وتداخلها وتفاعلها.

2- تطلُّب دراسة الجريمة معرفة طبيعة التفاعل الاجتماعي الذي يمدنا بمعلومات عن تكوين الشخصية وعوامل ثباتها. ويتطلب ذلك معرفة السلوك المقبول اجتماعياً أو معايير السلوك في المجتمع.

3- أهمية دراسة علاقة الجريمة بغيرها من العوامل التي تقود إليها.

إن تفسير الجريمة يعتمد على الأسباب المستمدة من الأسس البيولوجية النفسية والأسس الاجتماعية والأسس النفسية الاجتماعية (سعد جلال، 1986: 343- 344).

ومنذ عرفت ظاهرة الجريمة في المجتمعات البشرية وهي موضع دراسة وبحث تبعاً لمستوى العصر وما وصل إليه من تقدم علمي من ناحية، وتبعاً لفلسفة كل مجتمع وآيديولوجيته من ناحية أخرى.

بدأ التفكير في تفسير مشكلة الجريمة على المستوى الميتافيزيقي الغيبي، وهو تفسير لا يستند إلى أسس موضوعية ولا يعرف طرق البحث العلمي. ومن ذلك تفسير الجريمة على أنها نتاج لقوى غيبية أو أرواح شريرة تسيطر على الفرد فتدفعه إلى السلوك الإجرامي.

وتلت ذلك محاولات أولية من الفلاسفة القدماء أمثال سقراط وأفلاطون وأرسطو. ومن تفسيراتهم أيضاً نستطيع أن نتلمس آثار النظرة الغيبية في تفسير الجريمة، ومن ذلك الربط بين الجريمة والجهل أو الشيطان، أو الربط بينها وبين الجشع والحسد وحب الثروة. وكان أرسطو قد تعرض للجريمة في بحثه لعلم الفراسة ورأى أن من الممكن التعرف على أخلاق الفرد عن طريق دراسة سماته الجسمية وعلاماته المميزة كلون الشعر والبشرة وطول القامة ... الخ. كذلك لا يمكننا أن نتجاهل الدراسات الأولى التي قام بها أصحاب الدراسة الجغرافية في تفسير الجريمة على أساس الطقس والمناخ وطبيعة البيئة الجغرافية.

تلك هي الاهتمامات الأولى التي ظهرت في تفسير الجريمة، تلاها انتقال التفكير من مرحلة الأسلوب الغيبي إلى مرحلة الأسلوب العلمي في تفسير الظواهر نتيجة لنمو العلوم المختلفة وتأثر بعضها بالبعض الآخر.

وكان أن ظهرت اتجاهات مختلفة لتفسير السلوك السوي والمنحرف على السواء، إلا أن هذه الاتجاهات ظهرت متناولة لجانبٍ واحد أو عامل واحد يفسر به السلوك مع إغفال جوانب وعوامل أخرى يتضمنها غالباً الفعل أو السلوك.

ونتناول هذه الاتجاهات المختلفة مع بيان جوانب الصحة والخطأ في كل منها والأهمية النسبية لها في كل ما تنطوي عليه من عوامل مؤثرة في السلوك الإنساني. ويمكن إدراج هذه الاتجاهات تحت العناوين الثلاثة التالية:

أولاً: التفسير البيولوجي الفيزيقي.

ثانياً: التفسير النفسي (السيكولوجي).

ثالثاً: التفسير الاجتماعي النفسي.

اولاً: التفسير البيولوجي الفيزيقي

يقوم التفسير البيولوجي الفيزيقي أو العضوي – بصفة عامة – على أساس أن اتجاه الفرد إلى الجريمة إنّما يرجع إلى استعداد فطري بيولوجي موروث في الفرد، وعلى أساس أن هناك علاقة بين السلوك الإجرامي والتكوين العضوي الفيزيقي للجسم سواء من ناحية شكل الجسم أو من ناحية الكفاءة الوظيفية لأجهزته المختلفة كالمخ والعضلات والجهاز العصبي والغدد. وبعبارة أخرى – وبغض النظر عن الخلافات الفرعية بين العلماء المساندين لهذا الاتجاه – نجد أن هذا التفسير يقوم على مسلمتين أساسيتين.

الأولى: أن السلوك الإجرامي يمكن أن ينتقل بالوراثة من السلف إلى الخلف أو من جيل إلى جيل كما تنتقل الصفات الجسمية الأخرى كلون الشعر أو العيون أو طول القامة ... إلخ.

والثانية: أن بناء الجسم وتكوينه الفيزيقي أو الصفات الجسمية التي يولد بها هي التي تحدد شخصيته وسلوكه ومزاجه واتجاهاته النفسية، وبعبارة أخرى فإن الفروق الوراثية أو التكوينية بين الأفراد تنعكس في فروق سلوكية ونفسية بينهم.

ونتناول الآن التفسير البيولوجي الفيزيقي من زوايا أو أبعاد مختلفة تبعـ لاهتمامات العلماء في هذا الاتجاه.

إن الاتجاه البيولوجي الفيزيقي بكل ما ينطوي عليه من تفسيرات فرعيـ إنما هو اتجاه مرفوض تماماً نتيجة لما قدمته العلوم البيولوجية والإنسانية الحديثة مر حقائق تتعارض تماماً مع مفاهيم هذا الاتجاه ومسلّماته.

والاعتقاد بالأثر الحاسم للوراثة أو التكوين الفيزيقي أو غيره في هـا الاتجاه ينطوي على خطر بالغ لأنه يشجع على إغفال العوامل البيئية المختلفة من اقتصادية واجتماعية وغيرها- التي يرجع إليها الجزء الأكبر من السلو الإجرامي.

أضف إلى ذلك أن الإيمان أو الأخذ بهذا الاتجاه يشجع على الهروب مـ مواجهة عوامل الاضطراب والفساد في نظم المجتمع وأحواله، التي قد تكون العاً الأصلية وراء المشكلات الاجتماعية عموماً بما فيها مشكلة الجريمة. كذلك ة يشجع هذا الاتجاه على الهروب من تحمل مسؤوليات وتبعات الإصلاح والتقو

الحقيقي لأحوال المنحرفين والمجرمين صغاراً كانوا أو كباراً، بدعوى أن الإجرام بهذا المعنى قدري لا قبل للإنسان بمواجهته أو علاجه.

وفي النهاية، فإن هذا الاتجاه - وخاصة من جانب بعض العلماء- قد يكون اتجاهاً مضللاً يخدم أغراضاً رجعية سواء عن قصد أو عن غير قصد حتى تظل الجريمة وغيرها من المشكلات قائمة تنخر كالسوس في عظام المجتمع، تضعف من إرادته على التحرر والكفاح من أجل حياة أفضل.

وإذا كان لهذا الاتجاه البيولوجي العضوي من قيمة علمية بالنسبة لفهم السلوك الإجرامي وتشخيصه، فإنه لا يعدو في عناصره المختلفة أن يكون عاملاً مساعداً للفرد لأن يقع في الانحراف أو الاضطراب أو السلوك الإجرامي إذا توافرت العوامل الأخرى المكونة للشخصية الإجرامية، وبخاصة العوامل الارتقائية أي العوامل المتعلقة بالنمو النفسي من الميلاد إلى الرشد.

ثانياً: التفسير النفسي للسلوك الإجرامي

يقوم التفسير النفسي السلوك للسلوك الإجرامي على أساس أن هذا السلوك يعود أساساً إلى الخلل والإضطراب في التكوين النفسي للشخصية الذي يفصح عن نفسه في أشكال مختلفة من السلوك المنحرف تبعاً لظروف وعوامل تكوين كل شخصية مع عدم إغفال العوامل الاجتماعية المؤثرة في علاقة الفرد بالآخرين ولكي نتمكن من فهم هذا الاتجاه أو التفسير نعرض بشيء من التفصيل الجوانب التالية:

1- مفهوم السلوك الإجرامي من وجهة النظر النفسية وبخاصة التحليل النفسي.

2- المرض النفسي (العصاب) والسلوك الإجرامي.

3- خصائص السلوك الإجرامي الناتج عن المرض أو الاضطراب النفسي.

4- عوامل السلوك الإجرامي من وجهة النظر النفسية.

5- المرض العقلي (الذهان) والسلوك الإجرامي.

6- الضعف العقلي والسلوك الإجرامي.

مفهوم السلوك الإجرامي من وجهة النظر النفسية

ينظر علماء النفس – وبخاصة أصحاب مدرسة التحليل النفسي- إلى السلوك الإجرامي على أنه سلوك شاذ مرضيّ إذا كان صادراً عن شخصية مضطربة مريضة نفسياً. وبهذا المعنى فإن شخصية المجرم لا تختلف في جوهرها وتكوينها الأساسي عن شخصية المريض نفسياً؛ فهم يرون أن كل فعل إجرامي – على هذا الأساس – ما هو إلا دلالة على صراعات نفسية من نوع خاص تدفع بصاحبها إلى الجريمة.

وبعبارة أخرى، فالجريمة نتاج لفشل عملية تحويل الكائن البيولوجي البدائي الحيواني إلى شخص اجتماعي. ومن ثم كان اهتمام علماء النفس بالجريمة منصباً أساساً على شخصية المجرم والصراعات والدوافع النفسية التي أدت إلى إجرامه، وبخاصة الدوافع اللاشعورية، وليس على الجريمة التي يقع فيها المجرم.

كذلك فإن علماء النفس لا يهتمون بالمجرمين الذين لا تعبر جرائمهم عن هذا الاضطراب والخلل أو المرض النفسي ويعتبرونهم مجرمين من وجهة نظر القانون أو من وجهة نظر المجتمع؛ بمعنى أنهم مجرمون بلا شخصية إجرامية. وفي ضوء ما سبق، ترتكز وجهة النظر النفسية للسلوك الإجرامي والسلوك الشاذ أو المرضي عامة على الأسس التالية:

1- الأفعال السلوكية الشاذة أنماط مختلفة من السلوك لها أسبابها ودوافعها التي تدخل في تحديد نوع العمل سواء كان إجرامياً أو غير إجرامي بغض النظر عن رأي القانون أو المجتمع في هذا الفعل.

2- السلوك الإجرامي يحتوي على صراع نفسي بين الفرد ونفسه من ناحية وبين الفرد والمجتمع من ناحية أخرى.

3- السلوك الإجرامي وراءه دوافع لا شعورية تنطوي غالباً على العدوان والهدم بغض النظر عن الشكل الظاهري للسلوك.

4- الأنماط المختلفة للسلوك الإجرامي يقوم كل منها على ديناميات نفسية اجتماعية وتكوين نفسي معين يختلف باختلاف الأفراد. ومن ثم ينبغي دراسة هذه الديناميات قبل الحكم على السلوك بأنه إجرامي أو غير إجرامي.

وهكذا ينظر علم النفس إلى السلوك الإجرامي نظرة لا يفصل فيها المجرم نفسه وتكوينه عن الظروف المحيطة به، بعكس نظرة القانون أو المجتمع الذي ينظر غالباً إلى الفعل الإجرامي بغض النظر عن دلالته ودوافعه وأسبابه.

ولما كانت الجريمة راجعة من وجهة النظر النفسية - كما ذكرنا- إلى المرض النفسي، فلا بأس من الإشارة في عجالة إلى المرض النفسي وعلاقته بالسلوك الإجرامي.

المرض النفسي (العصاب) والسلوك الإجرامي

المرض النفسي أو العصاب هو اضطراب وظيفي في الشخصية لا يرجع إلى علة أو سبب عضوي أو بيولوجي في البدن، وإنما هو تعبير عن صراعات انفعالية لا شعورية لا يعرف المرء مصدرها أو صلتها بالأعراض التي يعاني منها. وبعبارة أخرى، فالمرض النفسي هو السلوك أو الحالة التي تتميز بوجود صراع عنيف بين دوافع الفرد ورغباته من ناحية وبين الواقع ومقتضياته من ناحية ثانية والأنا الأعلى أو الضمير الأخلاقي من ناحية ثالثة، بحيث لا تستطيع ذات الفرد أن توفق بين هذه القوى وأن تتخذ قراراً حاسماً بشأن الفعل أو السلوك.

ومن ثم تنشأ حالة مؤلمة من القلق والتوتر النفسي لا بد للذات أن تخرج منها. فإذا كانت ضعيفة مضطربة وكان الضمير ضعيفاً مضطرباً هو الآخر، فإن الفرد يلجأ إلى عمليات لا شعورية دفاعية مختلفة كالكبت والإسقاط والتعويض المسرف والتكوين العكسي وغير ذلك، وتظهر آثار هذه العمليات فيما يصطنعه المريض من أعراض نفسية مختلفة القصد منها التخفيف من حالة القلق والتوتر النفسي لديه والوقوف في وجه الوضع والرغبات التي يؤدي خروجها إلى ضميره إلى تعارض مع الواقع والمجتمع الذي يعيش فيه.

فالمريض النفسي ما هو إلا مجموعة من النماذج السلوكية، وهي نماذج مخففة فاشلة يصطنعها الفرد في محاولاته الجاهدة للاحتفاظ بتوازنه الانفعالي الذي اختل نتيجة الصراع بين دوافعه المجرمة وضميره والواقع. ومن النماذج السلوكية الممثلة للمرض النفسي أو العصاب معاناة مشاعر قلق عام لا مصدر معروفاً له، ومعاناة أفكار ونزعات غريبة على المريض لا يرى لها تبريراً ولا يستطيع منها فكاكاً، والمخاوف المرضية كالخوف من بعض الحيوانات أو الأماكن المفتوحة أو المغلقة، والأحلام المزعجة، والأفكار المتسلطة، والأفعال القهرية مثل غسيل الأيدي عشرات المرات دون مبرر، والعمى أو القيء أو الشلل الهستيري، إضافة إلى العديد من الأعراض التي يضيق بها المريض ويشعر بغرابتها وبرغبته في التخلص منها؛ فهو لا يختلف عن الشخص العادي من حيث قدراته العلمية وعلاقته بالعلم وتوافقه وتكيفه معه.

وسلوك العصابي لا يعتبر أساساً – من وجهة نظر علم النفس – سلوكاً إجرامياً، لأن العصابي مجرم في نظر نفسه وليس في نظر المجتمع لأن أعراضه المرضية غالباً ما تكون ذاتية لا تحمل تعارضاً مع المجتمع أو القانون.

غير أن العصابي أو المريض النفسي قد يتجه إلى السلوك الإجرامي في بعض الحالات عندما تشتد بالمريض عقده النفسية ودوافعه اللاشعورية، وبخاصة تلك التي تدور حول مشاعر الإثم أو النقص أو الخوف أو الحقد أو الكراهية أو الغيرة، والتي تدفعه إلى الجريمة عندما تضعف قدرته على احتمال الحرمان والنور والضيق والقلق الذي تسببه دوافعه اللاشعورية المكبوتة. ويحدث ذلك بسبب العنف في تكوين جهازه النفسي وعدم استئناس دوافعه وغرائزه نتيجة لفشل

عملية التربية والتنشئة الاجتماعية والعلاقة بالآخر. والمجرمون الذين تضطرب نفوسهم على هذا النحو يطلق عليهم المجرمون المرضى نفسياً أو المجرمون العصابيون.

ومن الجرائم التي يقع فيها هؤلاء المجرمون: السرقة القهرية والتخريب والإتلاف والإحراق والاعتداء والانحراف الجنسي.

وتتميز الجرائم عصابية المنشأ بالخصائص التالية:

1) لا تصدر عن تدبير سابق أو خطة بل تتم بطريقة تلقائية جبرية.
2) ليست تعبيراً مباشراً عن رغبة في الكسب أو الانتفاع، أو عن حاجة أو عدوان تجاه من يوجَّه له الاعتداء.
3) انعدام التحوُّط عند ارتكابها؛ فكثيراً يحدث أن يترك المجرم لا شعورياً ما يدل عليه عند ارتكابه الجريمة.

وترجع جميع صور الاعتداء إلى الكراهية اللاشعورية المكبوتة نحو الأب، ولكنها غير موجهة مباشرة إلى شخص الأب ذاته، بل مزاحة ومنقولة في أشكال العدوان والجريمة على كل ما يمثل سلطة الأب وقيوده.

والخلاصة أن القسوة والحرمان الشديدين في معاملة الطفل في الموقف الأوديبي تولدان الكراهية للسلطة الأبوية ولكل ما يمثلها، وبسببهما يرتكب الفرد السلوك الإجرامي.

تكوين الذات (الأنا) والسلوك الإجرامي:

الذات (الأنا) مسؤولة عن الفعل، وهي في جملتها مسؤولة عن ربط العلاقات وتنسيقها بين الفرد ونفسه وبين الفرد والعالم الخارجي. ويقوم كل ذلك على أساس تجنب الألم بالنسبة لإشباع حاجات الفرد وفي الوقت نفسه تجنب ما لا يقره المجتمع وما لا يرضى عنه الضمير. ويحدث السلوك السليم إذا كانت الأنا أو الذات قد نمت نمواً سليماً ناضجاً نتيجة لتربية مواتية وخبرات انفعالية ملائمة وعلاقات إنسانية سليمة. غير أن الأنا أو الذات إذا نمت نمواً غير سليم، فقد تصاب في وظائفها كلها أو بعضها باضطراب أو ضعف من شأنه أن يؤدي إلى الاضطراب النفسي أو السلوك الإجرامي.

وفي الحالة الأخيرة، يبدو بوضوح طغيان دوافع الفرد ورغباته ومن ثم سيادة اللذة وإهمال الواقع. وهنا نجد المجرم البالغ تنطوي نفسه على ذات هزيلة ضعيفة غير قادرة على أداء وظيفتها على نحو متوافق مقبول من الواقع. فهو فاقد القدرة على ضبط التعبير والتحكم في دوافعه ورغباته والتوفيق بينها وبين مقتضيات الواقع، ومن ثم فهو معرض للوقوع في ضروب مختلفة من السلوك الإجرامي كبديل عن الاضطراب أو المرض النفسي.

تكوين الذات العليا أو الضمير الأخلاقي والسلوك الإجرامي

ترى مدرسة التحليل النفسي أن السلوك الإجرامي لا يرجع إلى ضعف الذات واضطرابها فحسب، وإنما يرجع كذلك إلى اضطراب الضمير الأخلاقي أو ضعفه وسوء العلاقة والصراع بينه وبين الذات أو الأنا. فالمجرم تنطوي نفسه على

ضمير لم ينضج على نحو كافٍ يؤهله لأن يؤدي وظيفته بشكل سليم متزن من حيث التحكم في الذات وتصرفاتها ومن ثم ضبط السلوك على النحو المتزن المطلوب.

إن علاقة الفرد بالقانون والمعايير الاجتماعية المختلفة هي في جوهرها علاقة بالضمير الأخلاقي أو الذات العليا التي نشأت أصلاً من الوالدين أو من يقوم مقامهما، ثم انتقلت إلى كل ما يمثل السلطة الوالدية أو يرمز إليها بما في ذلك القانون.

والمفروض أن يكون لدى الإنسان السوي ضمير قوي ناضج متزن وظيفته الأداء الحسن في انسجام مع ذات الفرد ودوافعه وحاجاته من ناحية ومع ما يتطلبه المجتمع والواقع من ناحية أخرى.

ولا ينشأ الضمير سوياً وما يتبعه من سلوك ناضج متوافق مقبول بغير النمو السليم والتربية الناضجة والإشباع المتزن لحاجات الفرد المادية والنفسية في إطار من التعليم والتدريب الصحيح والعلاقات الودية خلال المراحل المختلفة لنمو الشخصية من الطفولة الباكرة حتى الرشد. والنمو المريض أو المضطرب للضمير يأخذ أشكالاً مختلفة تبدو في الضمير شديد القسوة، والضمير الضعيف، والضمير المتأرجح بين القسوة والتراخي. وقد يؤدي الضمير الذي تحمله نفسية المجرم أو الجانح إلى السلوك الإجرامي كما قد يؤدي إلى أنماط سلوكية أخرى تدخل في نطاق المرض النفسي. وبجانب ذلك يوجد من الناس من يقع في السلوك الإجرامي بالرغم من أنه يحمل ضميراً سوياً ناضجاً وشخصية سوية بشكل عام.

المرض العقلي والسلوك الإجرامي

إن المريض عقلياً قد يقع في مختلف أشكال السلوك الإجرامي كالقتل والتحطيم والإتلاف والحرق والسرقة والاعتداءات الجنسية وغير ذلك.

ويحدث هذا كله نتيجة لاضطراب عقل المريض وفساد حكمه على الأشياء وضعف بصيرته أو انعدامها، وكذلك نتيجة لما يعانيه من هلاوس أو هذاءات.

الضعف العقلي والسلوك الإجرامي

للضعف العقلي تعريفات كثيرة وإن اتفقت جميعاً في جوهرها والمحور الذي تدور حوله، وهو التخلف أو الانخفاض الملحوظ في درجة أو مستوى ذكاء الفرد.

ومن تعريفاته ما يلي:

الضعف العقلي Mental Deficiency هو نقص القدرة العقلية عند الأفراد، وما يترتب على هذا النقص من تخلف في الوظائف الأخرى.

ويصف بعض العلماء الفرد ضعيف العقل بأنه:

1- متخلف في النمو والبلوغ مع قصور عقلي.

2- متخلف في الذكاء منذ الميلاد والطفولة المبكرة.

3- قاصر اجتماعياً؛ بمعنى أنه غير قادر على إحداث التوافق بين حاجاته ورغباته من جهة وواقعه ومجتمعه من جهة أخرى، وهو بذلك لا يستطيع أن يرعى شؤونه.

4- غير قابل للعلاج.

والخلاصة أن ضعف العقل حالة يتوقف فيها نمو الذكاء نتيجة نقص أو عدم اكتمال نمو المخ بسبب عوامل وراثية أو مرض أو إصابة في أثناء الحمل أو الولادة أو قبل المراهقة ويترتب عليها نقص في الإدراك والتفكير والقدرة على التعلم والتكيف الاجتماعي السليم.

ويجب التفرقة بين الضعف العقلي والمرض العقلي – أي الجنون- حيث يخلط البعض بينهما، وإن كانت بعض حالات الضعف العقلي تشتمل على أعراض المرض العقلي.

فالضعف العقلي حالة وليس مرضاً تشتمل على انخفاض في درجة الذكاء عن المتوسط العادي، أما المرض العقلي فهو مرض قائم بذاته له نشأته وتطوراته ويعبر عن اختلال أو اضطراب في الاتزان العقلي والانفعالي. وعلى ذلك، فقد يكون المجنون ذكياً – بل قد يكون عبقرياً – ومن ثم فليست هناك علاقة بين الضعف العقلي والمرض العقلي أو الجنون.

كذلك يجب ملاحظة أن الضعف العقلي لا يصيب الفرد بعد المراهقة، وذلك لأن نمو الذكاء يستمر من الميلاد خلال مراحل الطفولة حتى سن الثامنة عشرة تقريباً. والضعف العقلي يعبر عن درجة منخفضة من درجات الذكاء تقل عن درجة المتوسط العادي من الناس. وهو لذلك وصف في ثلاث طبقات:

1- طبقة المعتوهين

وهم أحط طبقات ضعاف العقول، والمعتوه نسبة ذكائه تقل عن 25 ؛ فهو إذن على قدر ضئيل جداً من القدرة العقلية والذكاء؛ إذ لا يستطيع حماية نفسه من الأخطار المادية المألوفة. ويتميز المعتوه بخصائص جسمية تميزه عن الأفراد العاديين وتعرف بوصمات الانحلال، كالتشوهات والعاهات المختلفة في عضو أو أكثر من أعضاء جسمه. كما يتميز بخصائص جسمية وعقلية انفعالية تدل على التأخر الشديد في النمو. ومن أبرز خصائصه في هذا الصدد، النقص في الحواس، والقابلية للإصابة بالمرض، وعدم تكامل نمو الأسنان والعضلات، ضعف التخيل والتذكر، عدم القدرة على الاستنتاج، وضعف الإدراك، إلى غير ذلك من مظاهر الضعف العقلي الذي يعوقه ويعجزه عن التكيف والتوافق الاجتماعي والاستفادة من التعلم والخبرات. كما يعجز المعتوه عن التفاهم مع الغير، ويعبر بكلام غامض ومشوه وغير مفهوم لا يعدو أن يكون مقاطع وأصواتاً بسيطة. وأفراد هذه الفئة لا يمكنهم الاعتماد على أنفسهم إطلاقاً وهم محتاجون إلى الرعاية والإشراف باستمرار.

ويلاحظ عليهم سهولة انقيادهم للغير وعدم إدراكهم وتقديرهم المسؤولية، ولا يفهمون معنى القانون أو التقاليد أو العادات الاجتماعية.

ونتيجة لهذه الخصائص يقع المعتوهون في أخطاء خلقية ويسلكون سلوكاً مضاداً للقانون والمجتمع قد يصل إلى حد ارتكاب الجرائم الكبرى، ومن صور هذا السلوك حالات الاعتداء الجنسي وإتلاف الممتلكات والسرقة أو البغاء لدى الإناث. والمعتوهات لا يزيد عمرهن العقلي عند البلوغ - أي في سن ستة عشر عاماً- عن عمر طفل بلغ 7 سنوات.

2- طبقة البلهاء

هي أرقى قليلاً من طبقة المعتوهين. والبلهاء يختلفون عن المعتوهين في السمات والخصائص المختلفة التي ذكرناها في الدرجة. وتقع نسبة ذكائهم تقع بين 25 و 50 ، وهم من ناحية الحركة والكلام ووظائف العقل والأداء الانفعالي يتخلفون إلى الحد الذي يمكّن العابر من غيرهم أن يميزهم بمجرد الانتباه البسيط. غير أن هذه الفئة يمكن تدريبها على بعض الأعمال اليدوية والآلية البسيطة تحت الإشراف المباشر، وعمرهم العقلي لا يتعدى عند المراهقة 7 سنوات وذلك في أحسن الحالات. ونظراً لقصور إدراكهم وضعف بصيرتهم وتفكيرهم وسهولة انقيادهم، فهم أيضاً معرّضون للوقوع في الأخطاء الخلقية والسلوكية التي قد تصل إلى الجريمة.

3- طبقة الأغبياء

تتراوح نسبة ذكاء أفراد هذه الطبقة من 50 إلى 75 ، وهم غير قادرين على متابعة الدراسة في الفصول الدراسية العادية؛ فإدراكهم ومستواهم العقلي عند المراهقة لا يتجاوز مستوى إدراك ذكاء طفل في الثامنة أو العاشرة من عمره. وهم -بالعناية والرعاية الخاصة وفي فصول خاصة- يمكن تعليمهم القراءة والكتابة وبعض الحرف والأعمال البسيطة. كذلك يمكن بالتدريب والتعليم أن يصلوا إلى حد الاعتماد على أنفسهم في كسب عيشهم. وهذه الطبقة أيضاً يمكن أن تقع في السلوك الإجرامي بل في ارتكاب جرائم خطيرة لأن هذه الفئة إذا أهملت رعايتها فإن ذلك من شأنه تعريض أفرادها إلى الإغواء والإغراء والاستغلال ومن ثم الوقوع في الجريمة.

والخلاصة أن الضعف العقلي في طبقاته الثلاث يمكن أن يؤدي بصاحبه إلى الوقوع في الجريمة في أشكالها الكبيرة والصغيرة، وإن كانت جرائم ضعاف العقول بصفة عامة من النوع البسيط التافه.

مشكلة الإدمان

مقدمة:

يستخدم مصطلح الإدمان في العديد من السياقات لوصف الاعتياد النفسي اللاإرادي أو المفرط، مثل الاعتياد على المخدرات وألعاب الفيديو والجريمة والمال والعمل والإفراط في تناول الطعام والقمار والحاسوب والنيكوتين والمواد الإباحية، وغير ذلك.

وفي الطب يعرّف الإدمان بأنه اضطراب عصبي بيولوجي مزمن يؤثر على كل من الجوانب الجينية والنفسية والاجتماعية والبيئية. وهو إما استخدام مادة باستمرار بالرغم من آثارها السلبية وعدم القدرة على الامتناع عن استخدامها (سلوك لاإرادي)، أو استخدام مواد مخدرة لأغراض غير علاجية (فيما يُعرف بالحنين للمخدرات) ويكون الإدمان عادة مصحوباً بسلوكيات منحرفة كسرقة الأموال وتزوير الوصفات الطبية للحصول على المخدرات. كما تستخدم كلمة الإدمان أحياناً بالمعنى الإيجابي بين العامة للإشارة إلى شخص لديه شغف بشيء، مثل الكتب والإنترنت والشوكولاته وغيرها.

وبالرغم من أن اكتشاف المخدرات ليس شيئاً حديثاً في عمر الإنسانية، إلا أن تزايد أعداد المدمنين وظهور أشكال جديدة للإدمان قد جعل المشكلة عالمية بحقّ؛ إذ من الثابت أن أربعة من المخدرات الخطيرة قد عرفتها الإنسانية منذ القدم،

وهي: الأفيون والحشيش والكوكايين والكحول. لذا فإننا نتفق مع ما أورده مصطفى سويف (1996) من أن المخدرات موضوع ذو ماضٍ وحاضر ومستقبل. أما الماضي فيصل إلى فجر الحياة الاجتماعية الإنسانية، وأما الحاضر فمتسع يشمل العالم بأسره، وأما المستقبل فأبعاده متجددة وليست محدودة (مصطفى سويف، 1966).

وبالرغم من عدم وجود إحصاءات علمية يمكن الاعتماد عليها في تقدير حجم المتعاطين، فإن المؤشرات (العالمية على الأقل) تشير إلى الأرقام الآتية:

- عدد من يتعاطون الحشيش من سكان العالم يتراوح بين 40 و 50 مليون نسمة.
- مدمنو الهيروين يبلغ عددهم مليوني نسمة.
- مدمنو الكوكايين يبلغ عددهم 0.5 مليون نسمة (الأمم المتحدة، 1975).
- تزايدت أعداد من يستخدمون المهدئات والمنبهات في العالم؛ فقد قدّر عدد هؤلاء في مطلع الستينيات من القرن الماضي بخمسة ملايين فرد، ثم زاد هذا العدد ليصبح عشرة ملايين مدمن في نهاية سبعينيات القرن نفسه. (فاروق عبد السلام، 1977).

أما مشكلة الإدمان في مصر فإنها تعد من المشاكل المستفحلة التي تتحدى كافة أجهزة المجتمع. وقد تبين من ندوة علمية (ندوة الأهرام، 1982) أن المخدرات في مصر بكل أنواعها تعتبر "غولاً يفترس تنمية المجتمع المصري؛ إذ إن ما تدفعه مصر

ثمناً للمخدرات المهربة إليها من الخارج بالعملة الصعبة يقدر بـ 70 مليون جنيه مصري، وقد كان هذا الرقم في ذلك الوقت (1982) يساوي:

- نصف ثمن الصادرات المصرية من صناعية وزراعية وغيرها فيما عدا البترول.
- عائدات مصر العالمية من قناة السويس.
- دخل مصر من السياحة.
- ثلث مجموع ما تدفعه الدولة من دعم للسلع الغذائية الأساسية.
- نصف مجموع مرتبات كل العاملين في القطاع العام.
- أكثر من مجموع ما تحصّل من ضرائب على الإيراد العام وعلى الدخول.

هذا إضافة إلى ما تدفعه الدولة للإنفاق على أجهزة مكافحة المخدرات والعلاج، ناهيك عما يدفعه المدمنون في مصر ثمناً لشرائها، بجانب الضرر الذي ينزل بمتعاطي المخدرات وبأسرهم وينقص من قدرتهم على العمل والإنتاج (جمال أبو العزايم، 1984).

ومن خلال تتبع خريطة المخدرات وأنواعها في مصر – وفقاً لما قدمه (المجلس القومي لمكافحة وعلاج الإدمان – لجنة المستشارين العلميين) في التقرير التمهيدي (1999) انضمّ الهيروين إلى قائمة المخدرات المعروفة في مصر في أوائل ثمانينيات القرن العشرين، وكذلك الكوكايين ولكن بنسبة أقل كثيراً، وهذا بالإضافة إلى المواد النفسية الدوائية، وانتشار الماكستون فورت، وفي الوقت نفسه

زاد المعروض من الحشيش زيادة كبيرة وبقي الأفيون على ما هو عليه (المجلس القومي لمكافحة وعلاج الإدمان، 1991).

وبالرغم من أن مصر لم تكن – حتى وقت قريب – زارعة للمواد المخدرة، وكانت مثلها مثل العديد من الدول (دولة ترانزيت) تمر المخدرات عبرها من الشرق إلى الغرب من خلال قناة السويس، وميناء القاهرة الجوي، وغيرهما من الطرق، فإن الأرقام التقريبية التي توصل إليها الباحثون تؤكد أن شباب مصر على حافة الهاوية؛ لأن الأرقام – التقريبية – تؤكد ما يلي:

- 21 مليار دولار حجم ما يصرف على المخدرات.
- يبلغ عدد المدمنين حوالي مليوني مدمن.
- 15 شاباً يموتون يومياً تقريباً نتيجة تعاطي جرعات زائدة (محمد حسن غانم: 524).

ولكي تحدث ظاهرة الإدمان لا بد من توافر ثلاثة عوامل أو شروط هي:

المحور الأول: المواد المخدرة، وتنقسم إلى:

أ- **المواد المخدرة الطبيعية مثل:** الحشيش Ccannabis، والخشخاش، والأفيون Opium، ونبات الكوكا Coca، والقات Khat.

ب- **المخدرات الصناعية:** ومنها الهيروين Heroin وهو أحد مشتقات الأفيون وأقوى من المورفين خمس مرات، وسيطرته على المتعاطي سريعة، وقد تزايد الإقبال على إدمان الهيروين بصورة مفزعة في العديد من دول العالم.

ج- **المخدرات التخليقية:** وقد صنفتها هيئة الصحة العالمية عام 1973 على (3) أنواع هي:

1- عقاقير تؤدي إلى التنبيه الشديد وتسمى العقاقير المنبهة.

2- عقاقير تؤدي إلى الهبوط وتسمى العقاقير المهدئة.

3- عقاقير تؤدي إلى تنشيط الإدراك والانتقال والتفكير وسرعة الحركة، وتسمى العقاقير المهلوسة. هذا إضافة إلى مواد مخدرة أخرى مثل: الخمر والمواد الطيارة والتبغ والكافيين.

وسوف نقصر حديثنا فيما يتعلق بهذه المواد المخدرة على مادتين مخدرتين لوحظ في الآونة الأخيرة انتشارهما بين قطاع عريض من الشباب في مصر؛ ألا وهما: البانجو والتبغ (الشيشة والسجائر).

اولاً: البانجو Bhango: انتشر إدمان هذا العقار بصورة لافتة للنظر، بحجة أنه غير ضار، وأن له العديد من الفوائد، وخاصة زيادة النشاط، وتنشيط الإدراك للأمور، وسلامة التفكير، إضافة إلى زيادة الرغبة الجنسية، بالرغم من أن الواقع العملي يثبت عكس ذلك تماماً. والبانجو هو نفسه نبات القنب (الحشيش)، وله أنواع ومسميات متعددة مثل: "الكمنجة" و "الماريجونا". وهذه الأسماء تطلق على الناتج أو

المحضر أو المستخرج من أزهار نبات القنب الهندي أو أوراقه أو سيقانه أو جذوره ذكراً كان أو أنثى.

والنبات – بما أنه طبيعي – فقد عرف منذ فترة بعيدة تقدر تقريباً بأكثر من ستة آلاف عام، وكان يستخدم استخداماً طبيعياً لدرجة أنه يقال إن الإمبراطور الصيني 'شن ننغ' امتدح النبات، بل وطالب السكان أن يواصلوا زراعته؛ ذلك أن أليافه كانت تستخدم في صناعة الحبال، وبذوره تستخدم في استخلاص زيت الطعام، بل كان النبات يستخدم في العديد من المناسبات الدينية، حيث كانت تحرق أجزاؤه ويتم استنشاق بخوره، وكان هذا يتم في المعابد مما أكسب هذا النبات صفة 'القداسة'.

وقد بدأ الهنود يستخدمونه للكيف إلى جانب استخدامه مخدر، وكان الكرضة – بعد ظهور المسيحية – يتعاطونه في أثناء الحفلات والطقوس الدينية وتقديم القرابين لاسترضاء الآلهة، إضافة إلى استخدامه في التخدير في العديد من الأغراض الطبية.

وعموماً – وبدون الدخول في تتبع تاريخ هذا المخدر– فإن تقارير خبراء الإدارة العامة لمكافحة المخدرات ترجع أسباب انتشار تجارة مخدر نبات الحشيش الجاف (البانجو) إلى العوامل الآتية:

1- سوء الأحوال الاقتصادية وانخفاض مستوى الدخل مما ظهر أثره واضحاً في قلة الطلب على المخدرات الأخرى الأكثر تكلفة.

2- ارتفاع أسعار المخدرات الأخرى (الأفيون والهيروين والماكستون فورت ... إلخ).

3- سهولة زراعة البانجو، وخاصة في الوديان والسهول وفي الصحراء مترامية الأطراف، وخاصة في سيناء الشمالية والجنوبية، إضافة إلى إمكانية زراعته في الفرندات والبيوت مثلاً.

4- ضعف إمكانات الأجهزة المعينة بمكافحة المخدرات في تتبع ظاهرة تعاطي البانجو وزراعته، حيث تحتاج قوات المكافحة إلى الكثير من الطائرات وأجهزة رش المبيدات، ناهيك عن أن المساحات المزروعة بالبانجو في سيناء – على سبيل المثال – لا توجد لها سجلات تشير إلى حيازة هذه الأراضي وتحديد مالكيها.

تأثير البانجو: هذا العقار – كما يقولون – ظاهره الرحمة وباطنه العذاب؛ فله التأثيرات المؤقتة التالية (وهي قد تشجع على تعاطيه بسبب الأفكار الخاطئة):

- زيادة انشراح المزاج.
- تنشيط الإدراك.
- الاسترخاء والراحة.
- زيادة الشهية للطعام.
- خفض تقلصات العضلات.
- توهم زيادة الإبداع والتركيز والاستيعاب.
- إدرار البول.

- المساعدة على الهضم.
- قبض الأوعية والأنسجة في حالات النزف.

هذا عن "الرحمة" التي يتوهمها فيه كثيرون. أما "العذاب" الذي في باطنه فيتمثل في:

- زيادة تشنج بروتوبلازم الخلايا العصبية مما ينتج عنه زيادة التوتر والخرف والتبلد وضعف السمع والهلع وفقدان القدرة على الاستيعاب والفهم والتعلم والتركيز، إلى جانب التهابات الأوردة وتمددها واحمرار ملحمة العين والضعف الجنسي.
- الصداع والقلق والتشويش.
- الغثيان.
- اضطراب معدل خفقان القلب مع اضطراب ضغط الدم.
- حالة من التعب الشديد بعد جرعة كبيرة.
- تخيلات وهلوسة – حسب الجرعة.
- فقدان الوقار والرزانة. (مدحت أبو زيد، 1999).

لذلك فإن البانجو يؤثر على كافة أجهزة الجسم لأنه يؤثر في المقام الأول على خلايا الجهاز العصبي، وقد يتسبب في تدمير خلايا المخ وإصابة المدمن بالتخلف العقلي. وبالرغم من أن الإقلاع عن إدمان (البانجو) يعد أمراً سهلاً

بالنسبة للمدمن، فمن الصعب شفاؤه من المرض العقلي حتى بعد إقلاعه عن الإدمان ليظل فريسة للوساوس والهلاوس وجنون العظمة طوال حياته.

وقد أكدت الإحصاءات أن ما نسبته 80% من مدمني (البانجو) يتم شفاؤهم من أعراض المرض العقلي بعد إقلاعهم عن الإدمان، بينما يبقى ما نسبته 20% من الحالات ضحية للتخلف العقلي طوال الحياة بسبب تأثير المخدر على خلايا الجهاز العصبي وتدميره لخلايا المخ لدرجة أن مدمني (البانجو) أنفسهم يقولون عنه إنه 'يلحس' المخ.

ثانياً: التبغ : بالرغم من عدم وجود إحصاءات دقيقة عن المدخنين، فإن عدد المدخنين في الولايات المتحدة الأمريكية يتجاوز (50) مليون نسمة يشكلون ما نسبته حوالي 23% من إجمالي تعداد السكان. وفي كندا فإن 45% من التعداد الكلي للسكان هم من المدخنين. وفي المملكة المتحدة تبلغ نسبة الذكور المدخنين 68% ونسبة النساء المدخنات 43% من عدد السكان الكلي. أما في ألمانيا فتصل نسبة المدخنين إلى 60% من العدد الكلي للسكان (عادل دمرداش، 1983).

والمشكلة الأشد خطورة الآن هي ازدياد نسبة المدخنين للشيشة لدرجة أنها قد أصبحت 'موضة' وعلامة من علامات الرقي، بل نجد العديد من فنادق الدرجة الأولى – مثلاً في شهر رمضان – تعلن عن مخيم لسهرات رمضان مع الشيشة، مما جعل العديد من المهتمين بالصحة يحذرون من عودة 'السل' مرة أخرى، وذلك من خلال تناول 'مبسم' الشيشة وانتقاله من فم لآخر، ناهيك عن الإعلانات المتعددة لأنواع من التبغ بطعم التفاح والمانجو والفراولة وغيرها.

مكونات التبغ:

1- **النيكوتين**: وهو مادة شبه قلوية سامة جداً، ويكفي وضع نقطتين أو ثلاث من محلول النيكوتين النقي (30 – 40 ملغم) على لسان إنسان غير مدخن لتقتله. وليس للنيكوتين النقي رائحة إلا أنه يتحلل إذا تعرض للهواء ليصبح لونه بنياً داكناً وتصبح له رائحة التبغ.

2- **أول أكسيد الكربون**: وهو غاز سام جداً يوجد في عوادم السيارات، وينتج عن احتراق الفحم غير الكامل، ويؤثر على الجسم من خلال حرمان الخلايا من الكميات الكافية من الأكسجين، الأمر الذي يؤدي إلى تلف جدران الشرايين مما يقود إلى تراكم السوائل فيها ثم ترسب الكولسترول عليها، وهي الحالة التي تعرف باسم تصلب الشرايين.

3- **القطران**: ويترسب في جدران الحويصلات في الرئتين فيعطل تبادل الغازات فيهما. والقطران هو المادة التي تسبب سرطان الرئة، ويقوم المدخن بطرد نسبة من القطران في المخاط الذي يبصقه في أثناء السعال الذي ينتج من تأثير القطران المهيج.

4- **غازات أخرى**: يحتوي التبغ على غازات أخرى ضارة بالصحة منها سيانيد الهيدروجين الذي يتلف الأغشية التي تبطن الجهاز التنفسي وأكسيد النيتروجين المرتبط بحدوث أمراض الرئة المزمنة.

أضرار التدخين: يسبب التدخين الأضرار التالية مع مراعاة أن الشخص غير المدخن الذي يوجد مع شخص مدخن يتأثر هو الآخر ويعرف ذلك بالتدخين السلبي:

1- **أمراض القلب:** يؤدي التدخين إلى أمراض شرايين القلب والجلطة، ويبلغ عدد الوفيات السنوية نتيجة أمراض القلب نصف مليون نسمة يتسبب التدخين في 25% منها. والتدخين من أهم أسباب الوفيات في الولايات المتحدة الأمريكية على سبيل المثال.

يؤدي التدخين إلى تراكم الدهون في جدران الشرايين مما يؤدي إلى تضيقها وتخثر الدم في أماكن التراكم، فتتكون بذلك الجلطة. وقد وجدت الدراسات أن الأشخاص المفرطين في التدخين ترتفع نسبة الإصابة بينهم بالجلطة والوفاة الفجائية إلى ثلاثة أمثال ونصف. ويسبب التدخين أيضاً جلطة المخ وارتفاع ضغط الدم وأمراض شرايين الساقين التي تضيق مما يؤدي إلى الغرغرينا وبتر للساق. هذا بالإضافة إلى آلام الذبحة الصدرية.

2- **أمراض الجهاز التنفسي:** يؤدي التدخين إلى الإصابة بالسعال المزمن وإفراز المخاط والتهابات الصدر وهبوط وظيفة الرئتين، كما يقود إلى ارتفاع نسبة الإصابة بالتهاب الشعب المزمن أو تمدد الرئتين، وهي حالة تنتج من انفجار حويصلات الرئتين نتيجة للسعال المزمن، فيحبس الهواء داخل تجاويف الرئة، فيشعر المصاب بصعوبة في الزفير وضيق التنفس في أثناء الراحة والمجهود. كما يضاعف التدخين من نوبات الربو الشعبي في المصابين به.

3- **السرطان:** يرتبط سرطان الرئة بتدخين السجائر بصورة خاصة، وبعدد السجائر التي يستهلكها المدخن ومحتواها من القطران، وهل السيجارة بفلتر أم بدون فلتر. وهي حالة ترتبط أيضاً بتدخين الشيشة، وربما تكون الأضرار أكثر. ويسبب التدخين أيضاً سرطان الحنجرة والفم والمثانة والكلى والبنكرياس، وترتفع نسبة الإصابة بالسرطان بين مدخني الغليون.

أضرار أخرى:

- زيادة نسبة حدوث قرحة المعدة والاثني عشر بين المدخنين إلى مثلي نسبتها بين غير المدخنين.
- قد يسبب التدخين أحياناً العمى، وهي حالة يعاني المصاب بها من فقدان النظر البؤري وخاصة بالنسبة للوّنين الأزرق والأحمر. وترتبط هذه الحالة عادة بسوء التغذية.
- يؤدي التدخين المفرط في الرجال إلى العقم وإلى النفور الجنسي، لأن رائحة المدخن الكريهة قد تؤدي إلى أن تنفر زوجته منه (أو العكس بالنسبة للسيدات المدخنات).
- التأثيرات التي تصيب الجنين إبان فترة الحمل، وخاصة إذا كانت الأم مدخنة أو توجد في مكان فيه عدد كبير من المدخنين.

المحور الثاني: الفرد المدمن، حيث تطرح التساؤلات التالية:

التساؤل الأول: هل أي شخصية معرضة للإدمان أم إن الإدمان تقع فيه شخصيات تتسم بسمات وخصائص معينة؟

في الواقع، فإن العديد من الدراسات والأبحاث قد أشارت إلى وجود سمات تميز الشخص المدمن – أو حتى المستهدف بالإدمان. فقد أشار لانج (Lang, 1990) مثلاً إلى أن المدمنين يتسمون بأنهم:

1- غير ناضجين انفعالياً.

2- متهورون.

3- معتمدون إلى درجة كبيرة.

4- أقل تحملاً للإحباط والتوتر.

5- أقل قدرة على تحمل الألم والشعور بالذنب والحزن من معظم الناس.

6- غير قادرين على مواجهة المشكلات بطريقة مباشرة.

7- يجدون صعوبة في تأخير إشباع رغباتهم؛ فهم مثل الأطفال يريدون الإشباع الفوري وبدون تأخير (Lang, 1990).

- أما عادل صادق (1986) فيرى أن الإدمان ينتشر بين أربعة أنواع من الشخصيات هي:

1- الشخصية الاكتئابية Depressive Personality

صاحب هذه الشخصية هو إنسان أميل في مزاجه العام إلى الإحساس المستمر بالحزن وافتقاد الرغبة والحماس لكثير من الأشياء التي تثير حماس الناس، وهذا الشخص معرض لنوبات من هبوط الحالة المعنوية، والإحساس القوي بالحزن والاكتئاب لعدة أيام. ومن هنا فإن اللجوء إلى المخدرات قد يجلب له بعض السرور الذي يفتقده بشكل دائم.

2- الشخصية الفصامية Schizoid Personality

صاحب هذه الشخصية يتسم بالخجل والانطوائية ويفضل العزلة، ويهرب من الناس ومن التجمعات، ولا يقوى على التعبير عن رأيه، ويشعر باضطراب شديد حين يضطر للتعامل مع الناس، لأنه خجول وغير واثق من نفسه.

3- الشخصية المكروبة Stressed personality

هي شخصية تتسم بالقلق والتوتر الدائم بدون أي سبب، وصاحب هذه الشخصية في عجلة من أمره في كل شيء، وهو إلى جانب ذلك شديد الاندفاع لا يستقر له قرار وفي حالة دائمة من المعاناة.

4- الشخصية المضادة للمجتمع Antisocial Personality

يتسم صاحبها بالعدوان والعنف، وهو كثير الكذب، يهرب من المدرسة أو العمل. ويرجع الباحثون هذه الشخصية إلى العديد من السلوكيات المنحرفة منذ الصغر (عادل صادق، 1986).

التساؤل الثاني: هل الإدمان وراثي أم بيئي أم يجمع بين الأمرين؟

في الواقع، لقد أجري العديد من الدراسات في محاولة للإجابة عن هذا التساؤل، وقد استخدمت طرق متعددة للدراسة مثل: دراسات التوائم ودراسات التبني والعلاقة بين الإدمان والأمراض الوراثية ودراسة الحيوانات في المختبر. وبالرغم من تضارب النتائج في بعض الدراسات، فقد ذكر نورمان ميلر ومارك جول (1991) – مثلاً- أن الدراسات التي أجريت على أطفال أسر المدمنين في كل من شمال أمريكا وغرب أوروبا أوضحت أن الأطفال الذين ينتمون إلى آباء مدمنين للكحوليات يشيع بينهم الإدمان أكثر من الأطفال المولودين لآباء غير مدمنين (Norman and Miller, 1991: 3).

كذلك وجدت دراسات حديثة أن الأبناء الذين ينحدرون من آباء مدمنين للكحوليات يزيد معدل انتشار الإدمان بينهم نحو أربعة أمثال معدله بين الأبناء الذين ينحدرون من آباء غير مدمنين، وذلك رغم التنشئة في بيئات التبني حيث لا يوجد إدمان (Anthenelli and Schvckitm, 1992 : 39 – 50).

والخلاصة أن الأمرين كليهما يمكن أن يلعبا دوراً في نشأة الإدمان، ونقصد بهما الوراثة والبيئة. والآباء المدخنون نجد نسبة كبيرة من أولادهم مدخنين على عكس حال الآباء الذين لا يدخنون؛ ذلك لأن الأب قد يكون قدوة لابنه. من ناحية أخرى، تكون هناك رغبة لدى الشخص في بداية مرحلة المراهقة في أن يلفت الأنظار وأن يشعر بالرجولة من خلال التدخين، الذي يعد بوابة الولوج إلى عالم الإدمان بكل لغاته ومفرداته.

المحور الثالث: وجهة نظر المجتمع في الإدمان

لاحظ العلماء وجود فروق حضارية وثقافية فيما يتعلق بمشكلة تعاطي المخدرات، حيث يكون بعضها مفضلاً في ثقافة معينة دون أخرى؛ فنجد مثلاً أن إدمان الخمر منتشر في فرنسا وإيرلندا واسكتلندا والسويد. وينتشر الخمر والمنشطات كذلك في اليابان. أما في الولايات المتحدة الأمريكية فترتفع نسبة إدمان الخمر والهيروين. وأما عن المخدر المفضل في البلاد العربية فهو الحشيش.

وهنا يبرز هذا التساؤل: ما هو الاحتياج النفسي الذي يشبعه مخدر ما في ثقافة معينة؟ وما هي الأسباب التي تجعل "مخدراً ما" مفضلاً في ثقافة ومرفوضاً في ثقافة أخرى؟

إنّ المخدر إنما يكون استجابة طبيعية لطبيعة الشعب في مرحلة ما في الوقت نفسه الذي يعمل فيه على إشباع العديد من الاحتياجات النفسية. فعلى سبيل المثال، استخدم الشعب الصيني الأفيون لأنه يتناسب وطبيعته. فالصيني بطبعه مهذب وهادئ ومطيع، عكس الحال في الجزيرة العربية – التي كان يسودها طابع العنف في الجاهلية قبل الإسلام؛ فكان الخمر هو المخدر المفضل. أما في مصر فإنه في عصور الانكماش والاستعمار انتشر تعاطي الحشيش. وكتب "المقريزي" الذي جاء إلى مصر في القرن الرابع عشر الميلادي عن شيوع تعاطي الحشيش بين الفقراء في مصر، حيث كانت الطبقات الدنيا تدمن عليه، كما ذكر أيضاً أن الحشيش كان يؤكل في بلاد الشام والأناضول والعراق، وكان يوجد في مصر ما يسمى "ضامن الحشيش"، وهو شخص كان يحتكر بيع "الصنف"، وكان هؤلاء الأشخاص المحتكرون كانوا يدفعون جزءاً من المال إلى السلطة الحاكمة إبان العصر المملوكي، حتى جاء

الظاهر بيبرس وألغى وظيفة ضامن الحشيش عام 1266م، وأمر والي مصر بجمع ما فيها من حشيش وحرقه، ثم توالى إصدار التشريعات – حتى وقت قريب – دون أن تتوقف زراعة المخدرات أو تعاطيها.

وقد قام بيتمان Pittman بتقسيم الحضارات المختلفة من حيث اتجاهاتها نحو شرب الخمر مثلاً إلى:

أ- **حضارات ممتنعة:** وهي حضارات أو ثقافات تحرم شرب الخمر كلية، وتتصف بسيادة مشاعر سلبية قوية نحو الخمر ومن يتعاطونها.

ب- **الحضارات الازدواجية:** وتختص هذه الحضارات باتجاهات متناقضة نحو الخمر؛ إذ نجد في بعض المجتمعات اتجاهاً يتمثل في أن تعاطي الخمر يقود إلى اللذة، إلا أن المجتمع في الوقت نفسه يستنكر الإسراف في التعاطي والوصول إلى درجة "السكر البين" واختلال السلوك. وهنا يصبح الفرد في حيرة من أمره وقد ينخرط في الإدمان.

ج- **الحضارات المتساهلة:** وهي حضارات تشجع تعاطي الخمر، لكنها تستنكر السكر والتعاطي بإسراف.

د- **حضارات مفرطة في التساهل:** وتتجه هذه الحضارات إلى تشجيع شرب الخمر، ولا تستنكر السكر أو انحراف السلوك نتيجة الخمر (عادل دمرداش، 1983).

الأطفال والإدمان

ركزت كافة الدراسات على إدمان الشباب بصفتهم أكثر الفئات المستهدفة لهذا النوع من الإدمان.

بيد أننا لم نجد الكثير من الدراسات التي نبهت إلى تسلل الإدمان إلى فئة الأطفال، وخاصة إدمانهم للمواد المتطايرة. وهذا الإدمان قد أخذ في الانتشار بين المراهقين والأطفال بشكل خاص وهو ما يعد كارثة لأي مجتمع ينخرط أطفاله في تعاطي ما تسمح به إمكاناتهم. ومثل هذه المجتمعات التي تصاب في شبابها وأطفالها بكارثة الاعتماد على المخدرات، تكون قد خسرت الحاضر والمستقبل معاً.

محكات التعرف على الشخص المدمن

استطاع العلماء المهتمون بمجال الإدمان تحديد عدد من العلامات التي يتم من خلالها التأكد مما إذا كان الشخص مدمناً أو بدأ السير في طريق الإدمان.

في المنزل:

- يتجنب أفراد الأسرة.
- يتجنب التقاء عينيه بعيون والديه.
- تقلب حالته المزاجية.
- ينزع إلى المجادلة حول أي شيء.

- يتجاهل القواعد والأعراف ويتمرد عليها.
- يتمرد دائماً بداعٍ وبلا داعٍ.
- يستخدم لغة غير مهذبة.
- يروي أكاذيب.
- يحيط تصرفاته بالسرية والمبالغة.
- ينغمس في الاستماع للموسيقى الصاخبة.
- تكون عيناه حمراوين، ويشتاق إلى تناول الحلويات.
- يكثر من النوم أو يظل يقظاً لساعات طويلة.
- يتسلل إلى الخارج ليلاً.
- يتلقى مكالمات هاتفية مريبة.
- تمر به فترات طويلة من هبوط الروح المعنوية.
- يخالف القانون.
- قد يقدم على الانتحار.

في المدرسة أو الجامعة:

- يكون تركيزه ضعيفاً.
- يفتقر للدافعية.
- تتناقص الدرجات التي يحصل عليها.

- قد يوصف بأنه عاجز عن التعلم.
- يلقي باللوم على المدرسة أو الإدارة فيما يواجه من مشاكل.
- يكون معروفاً تماماً لدى الإدارة.
- يغش ويسرق ويحطم.
- يفتعل المشاجرات مع زملائه.
- يتسكع حول الأماكن التي يسمح فيها بالتدخين.
- يتوقف عن المشاركة في أي نشاط.

بالنسبة للوالدين:

- يجدان صعوبة في التفاهم معه.
- لا يرتاحان إلى مظهره.
- لا يرتاحان إلى أصدقائه.
- لا يعرفان أصدقاءه.
- يخافان منه أو من التعرض لاعتداء بدني من جانبه.
- يتجادل كل منهما مع الآخر بشأنه.
- يشعران بأنهما بلا حول ولا قوة تجاهه.
- يشعران بأن أموره تتدهور.
- قد يلجأ الوالدان إلى أساليب متنوعة لوقف تدهور حالة الابن.

أما عن علامات الإدمان ، فتبدو في المظاهر الآتية:

1- يبدو المدمن كالهائم على وجهه.

2- يعاني من احمرار في العينين.

3- قد يستخدم الرش (Spray) للتغطية على رائحة يديه.

4- قد يستخدم العلكة أو النعناع للتغطية على رائحة النفس.

5- يسلك سلوكاً عدائياً تجاه الآخرين.

6- يهمل واجبات الحياة العائلية.

7- يعاني من اضطراب في النوم.

8- قد يشعر بالرجفة والقشعريرة لأتفه الأسباب.

9- يتجنب الجلوس مع أفراد الأسرة أو غيرهم.

10- يعاني من قلق حاد.

11- لديه اختلال في الإحساس بالوقت.

12- اختفاء النقود أو الأشياء الثمينة من المنزل.

13- يمتلك ذاكرة ضعيفة.

14- يتحدث بسرعة أو بصوت منخفض جداً (إبراهيم نافع، 1991).

مشكلة الاكتئاب

Depression

انتشار الاكتئاب

يعاني الناس في الحياة المعاصرة من الاكتئاب بصورة أكبر مما كان الناس يعانون منه في الماضي وفي المجتمعات السابقة، لدرجة أنه يحلو لكثير من الكتاب والأدباء أن يصفوا هذا العصر بأنه عصر الاكتئاب (عبد الستار ابراهيم، 1998)، فكل شخص على وجه التقريب يصاب بالكآبة أو اليأس في بعض الأحيان. والشعور بالحزن أو الغم هو جزء عادي من طيف الانفعال البشري.

ويلاحظ الاكتئاب في جميع الطبقات الاجتماعية والأجناس. وهو شامل جداً لدرجة أنه يسمى إنفلونزا الأمراض العقلية، وهو شائع لدى النساء مثلي شيوعه لدى الرجال. كما يوجد الاكتئاب لدى الأفراد في جميع المهن، ولكنه أكثر ما يكون شيوعاً لدى الأفراد في مجالي الفنون والإنسانيات (Beach, 1998).

تشير الدراسات المسحية في مجال الاكتئاب إلى أن حوالي (12%) من المجتمع الأمريكي يعانون من الاكتئاب لمدة تزيد على سنة. كما توصلت الدراسات إلى وجود مخاطرة لتطور الاكتئاب بنسبة تتراوح بين (8% - 12%) لدى الرجال، وبين (20% - 26%) لدى النساء (Montgomery, 1991). ووفقاً لتقرير صادر عن رابطة علم النفس الأمريكية، فإن 7 ملايين امرأة و3.5 مليون رجل على

الأقل يمكن أن يشخصوا باعتبارهم يعانون من اكتئاب عظيم Major depression ، ويمكن أن تشخص أعداد مماثلة بالديسثيميا Dysthymia علماً بأن الاكتئاب العظيم والديسثيميا منتشران لدى طلاق الجامعة بأعداد تصل إلى مثلي الأعداد السابقة (Clay et al., 1993).

وعلى عكس ما متداول من أن الاكتئاب أكثر شيوعاً بين المسنين، فإنه في الواقع أكثر ما يكون شيوعاً في سنوات العمر من 25 إلى 40 عاماً. والأفكار الانتحارية شائعة لدى المكتئبين؛ فقد أوضحت الدراسات أن (60%) من حالات الانتحار ترجع إلى الاكتئاب أو الاكتئاب المصاحب لسوء استخدام الكحول (Beach, 1998).

والاكتئاب ليس كما يعتقد البعض – خطأ – ظاهرة أمريكية أو غربية، بل يصيب كل المجتمعات، وينتشر فيها بنسب متفاوتة، ويتزايد في تلك المجتمعات العمرية من جيل إلى جيل. وقد أخذ الاكتئاب يوسع من قاعدته العمرية؛ بمعنى أن الاصابة به بدأت تنتشر الآن في الأعمار الصغيرة، وبدأنا نلاحظ في السنوات الأخيرة تعبيرات منتشرة عن وجود ما يسمى 'اكتئاب الأطفال' (عبد الستار إبراهيم، 1998).

أعراض الاكتئاب

اتفق الباحثون بصفة عامة على مجموعة من الأعراض المرتبطة بالاكتئاب. فالاكتئاب يعبر عن مجموعة من الأعراض المركبة التي تتمثل في أربع فئات أساسية هي:

1- أعراض المزاج Mood Symptoms

وتعتبر تلك الأعراض بمثابة الشكل المحدد والأساسي للاضطرابات الوجدانية، مثل وجود مزاج حزين معظم اليوم تقريباً كل يوم لمدة أسبوعين على الأقل.

2- الأعراض الدافعية Motivational Symptpms

وتمثل الأشكال السلوكية التي تصاحب الاكتئاب. فالناس المكتئبون غالباً ما يعانون من قصوراً في هذا المجال، وقد يجد البعض صعوبة شديدة في القيام بأدنى عمل.

3- الأعراض البدنية Somatic Symptoms

وتشير إلى التغيرات الجسمية التي قد تصاحب الاكتئاب، وتشمل تغيرات في أنماط النوم والشهية والرغبة الجنسية.

4- الأعراض المعرفية Cognitive Symptoms

وتشير إلى تدني قدرة الأفراد المكتئبين على التركيز واتخاذ القرار، وانخفاض تقييمهم لأنفسهم (Ingram, 1994).

ويلاحظ من عرض الفئات الأربع السابقة لأعراض الاكتئاب أنها أغفلت جانب العلاقات الاجتماعية في حياة الفرد المكتئب. وهذا عالجه سترونجمان (Strongman, 1996) الذي نظر للاكتئاب بصفته يتضمن خمس مجموعات من الخصائص هي:

1- مزاج حزين وفتور في الشعور، 2- مفهوم سلبي عن الذات يتضمن تأنيب الذات ولومها، 3- رغبة في تجنب الأشخاص الآخرين، 4- فقدان الشهية والرغبة الجنسية، 5- تغير في مستوى النشاط في اتجاه الكسل، وأحياناً في شكل استثارة.

وتجدر الإشارة في هذا الصدد إلى أن أعراض الاكتئاب قد تختلف من فرد إلى آخر؛ فالبعض قد يتخذ لديهم الاكتئاب شكل أحاسيس قاسية من اللوم وتأنيب الضمير، ويجيء لدى البعض الآخر مختلطاً مع شكاوى جسمانية وأعراض بدنية بصورة لا تعرف معها الحدود بينها. ويعبر البعض عنه في شكل مشاعر اليأس والتشاؤم والملل السريع من الحياة والناس. وربما تجتمع كل هذه الأعراض معاً في شخص واحد، وقد تتوزع هذه الأعراض وتختلط مع غيرها من الأعراض النفسية والبدنية (عبد الستار إبراهيم، 1998).

وعلى صعيد آخر، نجد أن أعراض الاكتئاب تختلف من مجتمع إلى مجتمع آخر، وهذا يسمى الاكتئاب القومي National Depression ؛ فقد أشارت البحوث إلى أن كثيراً من الأعراض المرتبطة بالاكتئاب في العالم الغربي ليست جزءاً من الخبرة الاكتئابية في الثقافات غير الغربية، خاصة أعراض الشعور بالذنب، والإحساس باليأس، وتقدير الذات السلبي. وعلى النقيض، يبدو أن الشعوب غير الغربية- مثل مصر- قد يظهر الاكتئاب لديها في شكل أعراض بدنية أو فقدان الشهية، الأمر الذي يجعل المرضى يلجأون في البداية إلى الطبيب البشرية (Mersella, 1996; Ibrahim and Alnafie, 1991). ويتضح من العرض السابق

لأعراض الاكتئاب مدى تنوع الأعراض وتباينها من فرد لآخر، ومن مجتمع لآخر، ومن ثقافة لأخرى.

سلسلة الاكتئاب

يبدأ الاكتئاب عادي، ثم يليه اكتئاب اكلينيكي فرعي، وينتهي باكتئاب اكلينيكي. فيشير الاكتئاب العادي Normal Depression إلى تقلبات المزاج التي يمّر بها كل فرد، ويعبر عنها عادة في صورة مشاعر من الحزن. أما الاكتئاب الاكلينيكي الفرعي Subclinical Depression فيشير إلى شكل أكثر شدة من الاكتئاب العادي. ويشير الاكتئاب الاكلينيكي Clinical Depression إلى اكتئاب شديد إلى حد يتطلب التدخل والعلاج، ويتسم الاكتئاب الاكلينيكي بأربع سمات هي: 1- ارتفاع حدته، 2- استمراره لفترات طويلة، 3- إعاقة الفرد بدرجة جوهرية عن أداء نشاطاته وواجباته المعتادة، 4- عدم وضوح الأسباب التي تثير الشخص المكتئب (Ingram, 1994 ؛ عبد الستار إبراهيم، 1998).

الاكتئاب أحادي القطبية والاكتئاب ثنائي القطبية

إن أحد التصنيفات المتفق عليها على نطاق واسع هو التمييز بين التصنيفات أحادي القطبية Unipolar Depression والاكتئاب ثنائي القطبية Bipolar Depression كنوعين من أنواع الاكتئاب الاكلينيكي.

فيشير الاكتئاب أحادي القطبية إلى اضطراب يتسم بحدوث نوبة اكتئاب عظمى واحدة أو أكثر بدون نوبات هوس (Beach, 1998) .

ويشير دليل التشخيص الاحصائي الثالث المراجع (DSM-III-R, 1987) إلى أنه لابد لاعتبار الاكتئاب أحادي القطبية من وجود خمسة أعراض على الأقل من الأعراض التسعة التالية، يشترط أن تستمر لمدة أسبوعين على الأقل:

1- المزاج الحزين أغلب اليوم، تقريباً كل يوم.

2- انخفاض ملحوظ في الاهتمام والسعادة والنشاط أغلب اليوم، تقريباً كل يوم.

3- زيادة ملحوظة أو نقص ملحوظ في الوزن دون اتباع نظام غذائي معين، ومن ناحية أخرى نقص حادّ أو زيادة حادة في الشهية، تقريباً كل يوم.

4- أرق شديد مفرط.

5- هبوط أو تهيج نفس-حركي.

6- الارهاق أو التعب أو نقص الطاقة، تقريباً كل يوم.

7- مشاعر انعدام القيمة أو الشعور المفرط بالذنب.

8- ضعف القدرة على التفكير أو التركيز.

9- تجدد الأفكار عن الموت أو تصور الانتحار دون محاولة الانتحار أو وجود خطة محددة للإقدام على الانتحار.

واذا نظرنا للاكتئاب أحادي القطبية كنوبة اكتئاب عظمى Major Depressive Episode ، فيجب أن لا تتضمن أعراضه أعراضاً أخرى مثل الهلوسة. وإذا وجدت، فإن الاكتئاب لا يعتبر التشخيص الأولي، وسيكون الاكتئاب نتيجة ثانوية لاضطراب آخر معين. وهذا الاضطراب الآخر قد يكون اضطراباً نفسياً في طبيعته أو يكون مرضاً بدنياً (Ingram, 1994).

وتجدر الإشارة هنا إلى أن هناك فئات فرعية من الاضطراب الاكتئابي العظيم وإحدى هذه الفئات تسمى الاضطراب الوجداني الموسمي Seasonal Affective Disorder، وهو نوع من الاكتئاب الذي يشيع لدى بعض الأشخاص في بعض شهور السنة، خاصة في أشهر الشتاء حيث النهار القصير والليل الطويل. وبالتالي فإن كمية الضوء المتاحة قد يكون لها بعض التأثيرات البيولوجية التي تتمثل في تزايد إفرازات بعض الهرمونات التي ترتبط بالتعرض لفترات طويلة من العتمة. لهذا نجد أن هناك من ينصح الشخص المعرض للإصابة الموسمية بالاكتئاب أن يأخذ قسطاً وافياً من أشعة الشمس، خاصة قبل غروبها. وتتمثل أعراض الاكتئاب الموسمي في الرغبة في الانعزال، والميل للحزن، مع ميل شديد لتناول الأطعمة الغنية بالدهون والكربوهيدرات (عبد الستار إبراهيم، 1998).

كما يتضمن الاكتئاب أحادي القطبية الديسثيميا Dysthymia. من الملاحظ أن الديسثيميا لا تشمل أعراضاً اكتئابية كثيرة مثل نوبة الاكتئاب العظمى؛ فهي شكل من الاكتئاب أخف وطأة، بالإضافة إلى مزاج حزين. ولكي يتم تشخيص الديسثيميا لابد من وجود عرضين من الأعراض التالية: 1- ضعف الشهية أو المبالغة في تناول الطعام، 2- انخفاض الطاقة أو الشعور بالتعب، 3- انخفاض

تقدير الـذات، 4- ضـعف التركيـز أو صـعوبة في القيـام بمناقـشات، 5- الـشعور باليأس (Ingram, 1994)

ويشير دليل التشخيص الإحصائي الثالث المراجع (DSM-III-R, 1987) إلى أن كلاً من الديسثيميا ونوبة الاكتئاب العظمى يمكن أن يوجدا معاً. وهذا الـشكل المشترك من الاضطرابات يعرف بالاكتئاب المزدوج Double Depression، وحينمـا تستقر نوبة الاكتئاب العظمى فإن الديسثيميا تستمر في العادة.

أما بالنسبة للاكتئاب ثنائي القطبية، فهو اضطراب يتـسم بحـدوث نوبـة أو أكثر من الهوس تصاحبها عادة نوبة اكتئاب عظمى واحدة أو أكثر (Beach, 1998).

ولكي يتم تشخيص الاكتئاب ثنائي القطبية، فلابد أن يمّر الشخص بنوبات هوس هذا بالإضافة إلى أن الشخص قد يعاني من نوبات هوس دون أن يعاني من نوبة اكتئاب (Ingram, 1994).

وينظر إلى هذا النوع من الاكتئاب علـى أنـه أشـد خطـراً لأنـه لا يـصيب مشاعر المريض وعواطفه فحسب، بل يصيب كثيراً مـن قدراتـه الأخـرى بمـا فيهـا قدرته على التفكير السليم، وعلاقاتـه الاجتماعيـة، ويـشوه إدراكـه لذاتـه وللعـالم المحيط به، ومن ثم قد يـصبح المـريض خطـراً علـى نفـسه بـسبب إهمالـه الـشديد لحاجاته الإنسانية والحيوية، أو بسبب ما قـد يرتكبـه مـن أفعـال حمقـاء ضـارة بـه كالانتحار الذي يتوج عجزه وإحساسه باليأس (عبد الستار إبراهيم، 1998).

وكما هو الحال بالنسبة للديسثيميا في الاكتئاب أحادي القطبية، نجد السيكلوثيميا Cyclothymia في الاكتئاب ثنائي القطبية، وهي تتسم وفقاً لمعايير دليل التشخيص الإحصائي الثالث المراجع (DSM-III-R, 1987) باختلال المزاج المزمن الذي يستمر لمدة عامين على الأقل، كما تتضمن نوبات هوس عديدة وفترات طويلة من المزاج المكتئب.

خبرات الاكتئاب

بسبب ما لموضوع الاكتئاب من أهمية كبيرة، فقد جاءت عدة محاولات للتمييز بين أنماط فرعية من الاكتئاب بناءً على معايير غير الأعراض. وقد اقترح الباحثون والاكلينيكيون أنماطاً من الاكتئاب فميزوا بين نوعين من الاكتئاب، أحدهما الاكتئاب الحدادي أو الاعتمادي Anaclitic or Dependent Depression الذي يركز على العلاقات الشخصية المتبادلة مثل الاعتمادية ومشاعر العجز والافتقاد والهجر، والثاني هو الاكتئاب الاستدماجي أو الناقد للذات Introjective or Self-Critical Depression الذي يركز على قضايا خاصة مثل الاستقلال ونقد الذات ومشاعر الفشل (Luthar and Blatt, 1993).

ويتسم الأفراد ذوو الدرجات المرتفعة من الاعتمادية والإحساس بالذنب بالسلوك الاندفاعي والانشغال بقضايا الوحدة والهجر والإيماءات الانتحارية، بينما يتسم الأفراد ذوو الدرجات المرتفعة في نقد الذات بالوحدة الاجتماعية والسعي المكثف نحو التحصيل والسمات الحوازية ومحاولات الانتحار الحادة . (Rilcy and McGranie, 1990)

ويعد مفهوما الاعتمادية Dependency ونقد الذات Self-Criticism من أكثر المفاهيم شيوعاً في الدراسات النفسية الحديثة. والمتفحص لتطور هذين المفهومين يجد أنهما كانا محور اهتمام الباحثين في مجال علم النفس المرضي وعلم النفس الاكلينيكي، وذلك بهدف تحديد أنماط للاكتئاب تتضمن المشاعر والاتجاهات الخاصة بالذات والعلاقات الشخصية المتبادلة المقتصرة على أعراض الاكتئاب فقط.

فبناء على تحليل عاملي للأعراض الاكتئابية، حدد جرينكر وزملاؤه (Grinker etal., 1961) أنماطاً عديدة للاكتئاب، وتشتمل هذه الأنماط على نمطين أساسيين، أحدهما يتسم مبدئياً بمشاعر الحرمان ومحاولات تلقي الرعاية، أما النمط الثاني فيركز مبدئياً على الشعور بالذنب ومحاولات العودة إلى مرحلة سابقة أو وضع سابق.

ومن منطلق توجه سلوكي معرفي، ميز بيك (Beck, 1983) بين الاعتماديين اجتماعياً (ذوي المحور الاجتماعي) والمستقلين (ذوي الأنماط المعرفية). وأشار إلى أن الأفراد الاعتماديين يهتمون بشكل كبير بالعلاقات الشخصية المتبادلة ويكونون أكثر استهدافاً من جانب الاكتئاب استجابة لفقد أو رفض شخصي متبادل مدرك. أما الأفراد المستقلون فيهتمون بالتحصيل على نحو مرتفع، ويصبحون بصفة عامة مكتئبين استجابة لفشل شخصي مدرك بالنسبة للتحصيل أو عدم القدرة على التحكم في البيئة.

ومن منظور العلاقة بالموضوع، فرق بولبي (Bowlby, 1980, 1988) بين الأفراد القلقين الذين يسعون إلى الاتصال الشخصي المتبادل ويعتمدون بشدة على

الآخرين، وبين الأفراد الواثقين في الذات بشكل قهري والذين يتجنبون الآخرين ويلقون بشأن الأفراد الذين يسعون إلى إقامة علاقات حميمة.

ومن منظور شخصي متبادل Interpersonal ، ميز أريتي وبمبوراد (Arieti & Bemporad, 1978, 1980) بين نمطين من الاكتئاب، أحدهما يسمى الآخر المتسلط Dominant Other وفيه يتسم الفرد بإشباع رغباته بشكل سلبي من خلال آخر متسلط، أما الثاني فيسمى الهدف المتسلط Dominant Goal ويحتاج فيه الفرد إلى أن يعود إليه شعوره بقيمته وأن يتحرر من مشاعر الذنب.

ومن منطلق توجه تحليلي ومعرفي، ميز بلات (Blatt, 1974, 1990) بين نمطين من الاكتئاب هما: الاكتئاب الحدادي أو الاعتمادي والاكتئاب الاستدماجي أو الناقد للذات، كما أشرنا سابقاً.

ويتسم النمط الحدادي بما يلي:

أ- اعتمادية متزايدة على الأفراد الآخرين الذين يهتم بهم الفرد من أجل الإحساس بالأمان وقيمة الذات.

ب- الشعور بالفراغ والعجز والهجر كرد فعل لفقد حقيقي أو مدرك للحب والمساندة.

والأفراد مرتفعو الدرجة في هذا النمط من الاكتئاب معرضون لمشاعر الحرمان وعدم الإشباع ويجدون صعوبة في التعامل مع الآخرين.

بينما يتسم النمط الاستدماجي بما يلي:

أ- توقعات ومساعٍ عالية نحو التحصيل لإثبات قيمة الذات.

ب- مشاعر بالدونية والذنب ونقد الذات استجابة لفشل مدرك أو فقد الاستحسان والإحساس بالفشل في العيش طبقاً للمعايير والتوقعات.

والأفراد مرتفعو الدرجة في هذا النمط من الاكتئاب معرضون للنقد والإحساس بالفشل في العيش طبقاً للمعايير والتوقعات.

نستنتج من العرض السابق أن تطور النمط الحدادي أو الاعتمادي يؤدي إلى تأسيس علاقات شخصية متبادلة مرضية، ويؤدي النمط الاستدماجي أو الناقد للذات إلى هوية ذاتية ثابتة وواقعية وإيجابية. وينتج المرض النفسي حينما يبالغ في تأكيد أحد النمطين ويظهر الأفراد سلوكاً لا يلائم حاجات كل من النمط الحدادي والنمط الاستدماجي التي لم يتم إشباعها.

رد الفعل المعرفي للمزاج الحزين

يوجد اعتقاد بأن المعارف المختلة وظيفياً Dysfunctional Cognitions هي عوامل هامة في حدث واستمرار الاكتئاب. ومع ذلك، فقد أوضح البحث الحديث أن المعارف المختلة وظيفياً لمرضى الاكتئاب تختفي بعد العلاج، بصرف النظر عما إذا كان العلاج بيولوجياً أو نفسياً.

وبداية قد تشير النتيجة السابقة إلى اختلالات وظيفية معرفية وأعراض أو نواتج ثانوية. وقد دعمت النظريات المعرفية الحديثة هذه النتيجة بإقرار أن المعارف

المختلة وظيفياً لا تظهر خلال تراجع نوبات الاكتئاب، بل تصبح غير فعالة (أي كامنة). وحين لا تكون تلك المعارف مقصودة بالعلاج، فإنها قد تنشط بسهولة (على سبيل المثال خلال حالة الكدر أو الاستياء الخفيف)، مما يزيد من خطورة تواتر الاكتئاب.

وقد ساندت بعض الدراسات الإمبريقية الاعتقاد السابق، حيث أوضحت تلك الدراسات وجود ارتباط بين المزاج الحزين والمعارف المختلة وظيفياً لدى مرضى مكتئبين سبق شفاؤهم، ولكن ليس لدى أفراد لم تسبق إصابتهم بالاكتئاب مطلقاً (Miranda etal., 1990) ووجدت دراسات أخرى معلومات تعالج الفروق بين مشاركين سبق اكتئابهم وآخرين لم يكتئبوا مطلقاً بعد حث تجريبي لمزاج مستاء Dysphoric Mood (Ingram et al., 1994) .

وتعكس تلك الدراسات أنه قد يوجد قصور معرفي باق قابل للقياس فقط خلال المزاج الحزين (الذي يحدث بشكل طبيعي أو يستثار). وبالرغم من أن تلك الدراسات لم توضح ما إذا كان هذا القصور متضمناً سبباً في تواترات الاكتئاب، فإن هناك مساندة أكبر بكثير لهذه الفكرة قد أصبحت متاحة في وقت حديث (Segal etal., 1999) ؛ فقد استخدم الباحثون إجراء حث مزاجي لحث مزاج حزين عابر لدى المرضى الذين كان قد تم شفاؤهم من الاكتئاب عن طريق العلاج المعرفي أو العلاج بالعقاقير. وتم قياس المعارف المختلة وظيفياً مباشرة قبل الحث وبعد الحث لمزاج حزين. وقد اتضح أن متوسط درجات رد الفعل المعرفي ل 29 مريضاً عولجوا بمضادات الاكتئاب كان أكبر بشكل جوهري من متوسط درجات 25 مريضاً عولجوا بعلاج معرفي. علاوة على ذلك، فقد ساهم رد الفعل المعرفي

بدرجة جوهرية في التنبؤ بالانتكاسات الاكتئابية في أثناء التتبع لمدة سنة واحدة، بصرف النظر عن وسيلة العلاج السابقة.

وإذا ثبت أن هذه النتائج موثوقة (من خلال تكرار الدراسات). فإنها تقدم دعماً قوياً للنظرية المعرفية في علاج الاكتئاب.

المراجع:

1- معن خليل العمر: علم المشكلات الاجتماعية ،عمان – دار الشروق ، 2005.

2- دلال ملحس استيتيه و عمر موسي سرحان : المشكلات الاجتماعية ، عمان – دار وائل للنشر و التوزيع ،2011.

3-قنيفة نورة : المشكلات الاجتماعية ، جامعة العربي بن مهيدي – أم البواقي ، الجزائر ،2018.

4- اسحق محمد رباح، قضايا معاصرة، دار الكنوز المعرفية، عمان، 2009.

5- جمال ماضي أبو العزايم، الإدمان أسبابه وأثاره والتخطيط والوقاية والعلاج، القاهرة، وكالة فناس، 1999.

6- حسنين توفيق إبراهيم، ظاهرة العنف السياسي في مصر، القاهرة، مركز البحوث والدراسات النفسية، 1978.

7- دلال ملحس استيتية، التغير الاجتماعي والثقافي، دار وائل للنشر، عمان، 2004.

8- كمال دسوقي، الاجتماع ودراسة المجتمع، مكتبة الانجلوالمصرية، القاهرة، 1971.

9- سامي عبد القوى، منى أبو طيرة، عمل الأطفال- دراسة نفسية اجتماعية، القاهرة، مجلة دراسات نفسية، م9 ، ع1 ، رابطة الاخصائيين النفسيين، يناير، 1999.

-محمد محمود مصطفى، البلطجة بين طلاب المدارس الثانوية، رؤية الخدمة الاجتماعية للمشكلة ومداخل التعامل معها في دراسات الخدمة الاجتماعية والعلوم الإنسانية، جامعة حلوان، العدد السادس، ١٩٩٩.

-محمد مصطفى أحمد، الخدمة الاجتماعية والتكيف الدراسي، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٩٩.

-محمد نجيب توفيق حسن، الخدمة الاجتماعية المدرسية، كلية الخدمة الاجتماعية، جامعة حلوان، ١٩٨٢.

-ـــــــــــــــ، الخدمة الاجتماعية، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٨٢.

-محمد يوسف حسن، عادل السيد محمد الجندي، مهنة التعليم وأدوار المعلم، شركة الجمهورية الحديثة، الإسكندرية، ٢٠٠٥.

-محمود حسن محمد وآخرون، الخدمة الاجتماعية في المدرسة، المكتب التجاري الحديث، ١٩٧٦.

-محمود حسن محمد، الخدمة الاجتماعية المدرسية، المكتب الجامعي الحديث، ١٩٧٦.

-محمود فتحي عكاشة، الخدمة الاجتماعية في المجال المدرسي، حلبي لطباعة الأوفست، ١٩٩٨.

-مسعد الفاروق حمودة وآخرون، الخدمة الاجتماعية في المجال التعليمي، مطبعة سامي، الإسكندرية ٢٠٠٠.

-مصطفى حامد الشافعي، مذكرات في الخدمة الاجتماعية المدرسية، بدون ناشر، ١٩٩١.

-منير المرسي سرحان، في اجتماعيات التربية، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٩٧.

المراجع الانجليزية :

1- Bandura, A. (1977). Aggression: asocial learning analysis, Englewood cliffs, New Jersey, Prentices, Hall.

2- Beack, S. (1998). Depression: Theoretical explanations, In F. Magill (Ed.), Psychological basic (Vol. 1, 200-205), Calefania. Salama Press, Inc.

3- Beaurais, A., Jouce, P., Mulder, R. (1996). Risk factors for serious suicide attempts among yotu agea 13 through 24 years. Journal of the American Academy of Child and Adolscent psychiatry, 35, 1174-1182.

4- Bonner, R., & Rich, A. (1987). Taward a predictive model of suicidal ideation and behavior: Some preliminary data in colleve students, Suicide & Life Threatening Behavior, Vol. 17, 50-63.

5- Cole, D. (1989). Psychopathology of adolescent suicide: Hoplessness, coping belifs, and depression. Journal of Abnormal Psychology, Vol.98, No. 3, 348-355.

6- Dear, G. (2000). Funcional and dysfunctional impulsivity, depression and suicidal idcation in a prison population. The Journal of Psychology, Vol. 134, No. 1, 77-80.

7- De Man, A. (1999). Correlates of suicide ideation in high school students: The importante of depression, The Jornal of Genetic Psychology, 160, 105-114.

8- Dollard, J & Miller, E (1995). Frustration and aggression, Yale university press.

9- Dori, G. & Overholster, J. (1999). Depression, hopelessness, and self esteem: A ccounting for suicideality in adolescent psychiatry inpatients. Suicide & Life- Therattening behavior, 29, 309-318.

10- Dyck, M. (1991). Postivc and negative attitudes mediating suicide ideation. Suicide & Life- Threating Behavoir, 4, 336-373.

11- Farrington, D. (1987). Thc familic behavior, a book supplement to the journal of child psychology and psychiatric, no.1, pergmon press, n.y.

12- Gould, M., & Karner, R. (2001). Youth suicide prevention Suicide & Life- Threatening Behavior, 31, 6-31.

13- Hawton, K., Simkin, S., Deek, J., O'connar, S., Keen, A., Altman, D., Philo, G., & Bulsirade, C. (1999). Effects of a drug overdos in televison drama on presentation to hospital for self poisoning: Time series and questionnaire study. British Medical Journal, 318, 972-977.

14- Leenaars, A. (1997). Rick: A suicid of a young adult. Suicidc & Life Threatening Behavior, 27, 645-658 .

15- Leenars, A. (1996). Suicide: A multidimensional malaise. Suicide & Life- Threatening Behavior, 26, 15-27.

16- Lester, D., & Abdel – Khalc, A. (1998). Suicidality and personality in American and Kuwatit students. International Journal of Social Psychiatry, 44, 280-283.

17- Lewinsohn, P., Rohade, P., & Salley, J. (1996). Adolescent suicide idcation and attempts: Prevalence, risk factor, and clinical implication. Clinical Psychology: scince and Practice, 3, 25-46.

18- Maltsberge, J., (1997). Culture and egaoidial in suicide: An adult case. Suicde & Life- Threatening Behavior, 27, 28-33.

19- Matet, D. (1996). Suicide, In R. Corsini & A. Auerbeach (Eds.), Concise encyclopedia of psychology (885-886), NewYork: Awiley- Interscience Puplication.

20- Pettrie, K., & Brook, R. (1992). Sense of coherence, Self ecteem, depression and hopelessness as correlates of re-attempting suicide. Britesh Journal of Clinical Psychology, 31, 293-300.

21- Pfeffer, C., Mc Bride, A., Anderson, G., & Hait, V. (1998). Peripheral serotonin measures in prepubertal psychiatric inpatients and normal children: Associations sith suicidal behavior and its risk factors. Biological Psychiatry, 44, 568-577.

22- Rich, A. et al., (1992). Gender diffcrences in the psychosocial corrlaer of suicide ideation among adolescents. Suicide & Life-Threatening Behavior, 22, 364-373.

23- Robert Merton, (1976). The Sociology of Social Problems, in R. Merton & R. Nisbet ed., Contemporary Social Problems, Harcourt Prace Jovanovich, Inc. N.Y.

24- Rodncy Stark, (1975). Social Problems, CRM. Random Housc, Inc., N.Y.

25- Shreve, B., & Kandel, M. (1991). Self- psychology shame and adolescents suicide: Thearetical and pracitical canlderations. Journal of counseling & Development, 69, 305-311.

26- Stewart, S. Lang. T., Betson, L., & Chang, S. (1999). Suicidc ideation and its relationship to depressed mode in a community